

الأعلام من الأدباء والشعراء



لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ الْعَامِرِيِّ
حَيَاتُهُ وَشِعْرُهُ

إعداد
حسن جعفر نور الدين
مأجستير في اللغة العربية وآدابها

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الاعلام من الابرار والشجر

لبيد بن ربيعة العامري حياته وشعره

إعداد

حسن جعفر نور الدين

ماجستير في اللغة العربية وآدابها

شبكة كتب الشيعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



shiabooks.net

رابطہ پیدل < mktba.net

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

طبع في: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
رقم: ١١/٩٤٤٤، تلخيص: Nashr al-Asas
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد . فهذه دراسة قصيرة حول لبيد بن ربيعة العامري ، الشاعر المخضرم ، تناولت فيها عصره وبيئته ، ثم تحدثت عن حياته وسيرته الأدبية ، وفنونه الشعرية ، ومعلقاته ، معتمداً أسلوب الإجمال .

والحديث عن الشعر الجاهلي طويل وشاق .

إنه الحديث عن الجاهلي نفسه بما يكتنف حياته من أضواء وظلال .

وحديث عن الجاهلية بكل تفاصيلها . وإنك لتستطيع من خلال شاعر جاهلي واحد أن تلم بالبادية ونظمها المعيشية وتاريخها وحضارتها .

وهكذا كان شعر لبيد . ابن الصخراء الجافة القاحلة القاسية

إلا أنه زاد غيره بتلك الومضات الدينية الإيمانية التي

حفلت بها قصائد كثيرة من نتاجه، وبذلك اللمحات الحكيمية التي وشح بها شعره.

كان مؤمناً في جاهليته وفي إسلامه، إلا أن إيمانه في إسلامه إزداد عمقاً وأصاله.

عاش عمراً طويلاً. إلا أنه كان عمراً مشرقاً أضاءته تلك القيم التي كان بها يعتز، والتي لا تزال تخلد تاريخه عبر الأجيال، قيم الإباء والشرف والجود والنخوة والفروسية والنجدة أحب الحياة خالية من كل كدر. وصرف أيامه متنقلاً مسافراً مفتشاً عن الحقيقة في مفازات الصحراء وبين كثبانها الرملية الحارقة.

حسن جعفر نور الدين.

العصر الجاهلي

العصر والبيئة

معنى الجاهلية :

حدث هذا الاسم في الإسلام للزمن الذي سبق بعثة النبي محمد ﷺ، وقد ورد في القرآن الكريم في عدة مواضع، منها قوله تعالى في سورة آل عمران: يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، وفي سورة الفتح: إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية، حمية الجاهلية، وفي سورة المائدة: أفحكم الجاهلية يبغون، وفي سورة الفرقان: وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً.

والمقصود بهذه الآيات ما كان عليه العرب قبل مجيء الإسلام من نزق وطيش وتهور واستبداد وحمق وسفه، فهم إذن جاهليين، لأنهم كانوا بعيدين ببعض ممارساتهم عن قيم الدين الحنيف وتعاليمه السمحاء. ولا يستغرق هذا السلوك كل العرب، فقد كان بينهم من توافرت فيه كل الصفات الحميدة، من حكمة وتعقل وروية.

أما أنهم جاهليين غير عالمين استناداً لمعنى الكلمة

اللغوي، فهذا لم يكن يتطابق مع ما عرف عن العرب
الجاهليين من شعر راق جميل ونثر بليغ ومعرفة بالطب
والفلك وفنون الحرب وأدواته والقتال وضروبه، وما خلفوه
من آثار في فن العمران والهندسة.

وبهذا يكون الجهل الذي نعت به الجاهليون هو الجهل
الديني، الذي يتنافى مع الأخلاق والقيم العليا التي حملها
الاسلام رسالة محبة وتطور وحياة.

بلاد العرب الجاهليين:

بلاد العرب موطن شاعرنا لبيد تقع في أقصى الجنوب
الغربي لقارة آسيا، يحدها من الشمال بلاد الشام، ومن
الشرق الخليج العربي ومن الجنوب المحيط الهندي ومن
الغرب البحر الأحمر، وتقسم سلسلة جبال السراة الجزيرة
العربية إلى قسمين، فما انحدر إلى جهة الغرب نحو البحر
الأحمر سمي تهامة، وما ارتفع نحو الشرق يسمى نجداً.

إن تهامي فتهامة وطني
أو تنجدي إن الهوى نجد

وسميت سلسلة جبال السراة حجازاً لأنها حجزت بين
تهامة ونجد، تتخللها كثبان رملية وأكمام خصبة وتقوم حولها
القرى وتتفجر العيون.

والجزء الذي ينتهي به نجد في الشرق يشمل البحرين واليمامة وعمان، أما القسم الجنوبي فيسمى اليمن لأنه عن يمين الكعبة.

طول بلاد العرب من الشمال حتى الجنوب ١٤٠٠ ميل وعرضها ٨٠٠ ميل، ومساحتها ١٢٠ ألف ميل مربع. مناخها قاري شديد الحرارة كثير الجفاف، وأمطارها قليلة، لذلك قَلَّتْ فيها الأنهار والينابيع والغابات والنباتات، وانحصرت الزراعة والواحات في أماكن سقوط الأمطار.

ولقلة الغابات فيها قَلَّتْ حيواناتها الوحشية، كما يوجد في صحاريها بقر الوحش والظباء والنعام والغزلان والحمار الوحشي. وأهل الجاهليون الحيوانات الأليفة علة وجودهم في الصحراء، فمن لحومها وألبانها كانوا يأكلون ومن جلودها وأصوافها ينسجون فيلبسون، وبواسطتها يتنقلون.

أما مدن الجزيرة فكانت حيث استقر القوم في مواطن الخصب والأرزاق، وأهمها: صنعاء في اليمن وكان اسمها أزال، كثيرة الأشجار والمياه، اشتهرت بقصورها الفخمة الرائعة كغمدان وقصر العشب وفي اليمن زبيد قصبة التهامم قريبة من صنعاء، ومدينة مأرب إلى الشمال الشرقي من صنعاء، عذبة المياه رقيقة الهواء غنية بالرياض والبساتين، أما عدن فهي أقدم أسواق العرب في الجاهلية.

ومن مدن اليمن أيضاً نجران مدينة الأمن والسلام،
كان يجار فيها الخائف وينجد المستغيث ويشبع الجائع
وتقضي حاجات الطالبين، اشتهرت بقبتها التي كانت تظلل
ألف رجل، وهي قطعة ساحرة ذات نخيل وأشجار، وأهم
مركز تجاري في اليمن، تتفرع منها الطرق البرية نحو الشام
والعراق، وساحاتها شهدت أعنف صراع بين اليهودية
والنصرانية وكانت ذات شأن صناعي مهم، وفي اليمن أيضاً
صعدة مبدعة النصال الصاعدية وظفار مدينة البساتين والعنبر.
أما مدن الحجاز فأهمها مكة، فيها بيت الله الحرام مقصد
الحجيج كل عام، تحيط بها الجبال من جميع الجهات،
كانت مسكن قريش سيدة العرب، وفي شمالي مكة يثرب بلد
الآبار والعيون ومن أمهات المراكز الزراعية ببلاد العرب،
وتوجد الطائف بستان مكة، اشتهرت بالدباغ والفاكهة وكانت
فيها قبيلة ثقيف، وأخيراً مدينة خيبر مدينة النخيل.

ومن بلاد الطائف عكاظ كانت تقوم فيها أسواق العربية
التجارية والأدبية، ومن مدن تهامة ينبع وجده والحديبية وتبوك
ومن مدن البحرين هجر ومدينة الخط مصدر الرماح الخطية.
أقسام العرب:

العرب ساميون نسبة إلى سام بن نوح. قسمهم المؤرخون
عبر تاريخهم الطويل إلى ثلاثة أقسام.

١- العرب العاربة، أو البائدة وهما الذين بادوا وعفت آثارهم. كانوا يتكونون من شعوب مختلفة منها عاد وثمود والعمالة، ومدين وطسم وجديس وهؤلاء أرسل الله غضبه عليهم فبادوا، كما تروي قصص القرآن الكريم.

العرب المتعربة: بقي نسلهم حياً وهم عرب الجنوب أو عرب اليمن والعرب القحطانيون نسبة إلى قحطان بن سام ويروى أنه أول من تكلم بالعربية، وأول من اتخذ صنعاء اليمن داراً للملك.

٣ - العرب المستعربة أو عرب الشمال، سكنوا تهامة والحجاز، وسموا بالعرب الاسماعيليين لأنهم ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم (ع)، كما سموا بالعرب العدنانية نسبة إلى عدنان من نسل إسماعيل.

حياتهم ومعشتهم:

اختلفت منازل العرب وطرق حياتهم تبعاً للظروف التي نشأوا فيها، فسكنوا المدن والقرى كانوا يسمون الحضر، والمنتشرون في البادية كانوا يسمون بدواً.

وقد عاش الحضر حياة استقرار وثبات إذ كانت تتوافر لهم مصادر الرزق حيث يسقط المطر وتفيض الآبار والعيون خاصة في يثرب والطائف وتبوك وخيبر واليمن أرض الله

السعيدة وجنته الوارفة الظلال، وكانت أغنى مدن شبه الجزيرة وأكثرها تحضراً ورقياً، فقد أقام الناس فيها قصورهم على أساطين محلاة بالذهب وعلقوا على أفاريز منازلهم صحائف ذهبية مرصعة بالجواهر واقتروشوا الحرير ولبسوا الخز. وعرف الحضرة التجارة وقد لعبت دوراً مهماً في تنشيط الحركة الاقتصادية في شبه الجزيرة العربية وكان لهم رحلات يقومون بها في مواسم معينة على مدار السنة، وقد ورد في القرآن الكريم ذكر لهذه الرحلات التجارية، وكانت تقوم بين مناطق الداخل وبينها وبين الدول المجاورة كالهند ومصر والشام، وكانت مكة أهم مركز تجاري عند العرب، ففيها البيت الحرام وبئر زمزم، وعندما اشتد العداء بين الروم والفرس اعتمد الرومانيون على تجارة مكة، وعمرت أسواق العرب بالبضائع الأجنبية والعربية، فكان اللؤلؤ يستورد من فارس والأنسجة والسيوف من الهند، والحرير من الصين والأرقاء والقروود والعاج وريش النعام من الحبشة، وكان اليمينيون يحملون هذه البضائع مع غلات حنظل ووظفار إلى مصر والشام.

أما الصناعة فلم تكن مزدهرة، إلا أن العرب عرفوا شيئاً منها حيث استقروا، فازدهرت صناعة النصال الصاعدية في صعدة، وصناعة الدباغة في الطائف، والنسيج والحياسة

والنعال والخفاف والأنطعة في اليمن، وصناعة السفن الصغيرة على سواحل البحار.

أما البدو الرحل فهم الكثرة الساحقة من السكان، عاشوا قبائل متناثرة في الصحراء المجربة، لذلك فهم لم يبتنوا دوراً ثابتة ولا منازل مستقرة، وإنما سكنوا الخيم المصنوعة من جلود الحيوانات وكانوا يحملونها معهم أنى ظعنوا، يدفعهم إلى ذلك ضيق المكان وكثرة الحروب والغزوات، والتوسع الأوسري ونضوب مصادر الماء والكلاً والظروف الطبيعية المفاجئة كما حدث للعرب بعد سيل العرم وانهيار سد مأرب. وقد نسجت حول الرحلات الجاهلية قصائد كثيرة حتى صار ذكر الأحبة والديار سنة عند معظم الشعراء الجاهلين. وقد اعتمد البدو في حياتهم على ما في الصحراء من حيوان، فاتخذوه مصدر قوتهم اليومي، وكانوا يصطادون الوحوش ويقتلون بها يشوون لحمها ويأكلونه. أما الحيوانات المستأنسة فقد تعهدوها بالرعاية التامة لأهميتها بالنسبة لهم، كالإبل والغنم والمعز والخيول، فاتخذوا الإبل والغنم والمعز موارد لرزقهم يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويصنعون من أوبارها وأصوافها وجلودها ألبسة لهم ومساكن تقيهم الحر والبرد. واعتمدوا على الخيل في السلم والحرب، يصيدون بها الوحوش ويغيرون بها ويقاتلون، وهكذا فإن موارد رزق

البدوي، كانت هذه الحيوانات التي يملكها، وما يغمه من الغارات والحروب، وما يتقاضاه من ضرائب يدفعها أصحاب القوافل التجارية التي تخترق الصحراء لقاء حمايتها، ورغم ذلك فقد كان بين البدو فقراء لجأوا إلى السلب والنهب وقطع الطرق في متاهات الصحراء ومفازاتها، فانعدم الأمن وصارت القوة هي القانون.

أسواق العرب:

أدت الحركة التجارية في بلاد العرب وتبادل السلع إلى قيام أسواق كثيرة، ثابتة وموسمية، وقد انتشرت هذه الأسواق في شتى مناطق شبه الجزيرة العربية، حتى يستفيد معظم الناس منها، وكان لكل منها وقت خاص وذلك كي يستطيع من شاء أن يحضرها كلها. ومن هذه الأسواق:

- دومة الجندل: تبدأ أول يوم من ربيع الأول من كل عام وتستمر شهراً أو نصف شهر.

- سوق هجر بالبحرين موعده في شهر ربيع الثاني.

- سوق عمان ويرتحلون إليها من سوق هجر وتبقى حتى آخر شهر جمادي الأولي.

- سوق المشقر (وهو حصن بالبحرين).

تبدأ في أول يوم من جمادي الثانية وسوق صحار مدتها خمسة أيام وتقوم في العشرين من شهر رجب.

- سوق الشحر، تقوم في النصف من شعبان، وسوق عدن أبين، تقوم في أوائل رمضان ومنها كان يحمل الطيب إلى سائر الدنيا.

- سوق صنعاء وتقوم في النصف الثاني من شهر رمضان وسوق ذي المجاز كانت تقوم بجانب عرفة.

- سوق مجنة قرب مكة موعدها مطلع موسم الحج وتحضرها معظم قبائل العرب وكانت تستمر سبعة أيام.

- سوق عكاظ أعظم الأسواق، كانت تقام أيام موسم الحج وتحضرها كل القبائل وبها كانت مفاخرة العرب ومهادناتهم، وكانت تستمر ثلاثين يوماً.

وقد لعبت هذه الأسواق أكبر أثر في تنمية الاقتصاد العربي، كما أنها شدت من عرى العلاقات الاجتماعية وقوت الروابط بين الأفراد والجماعات والشعوب المختلفة. وقد استعمل عرب الجنوب نقوداً من الذهب ومن الفضة في معاملاتهم التجارية، وتعامل أهل الحجاز بالنقود الرومية والفارسية فتبادلوا الدنانير والدرهم.

حالتهم السياسية :

قام في اليمن خلال العصر الجاهلي نظام الملكية ونشأت فيها دول مختلفة وحضارات ، أما بقية المدن والقرى فكانت أنظمتها السياسية متباينة ، فمكة كان يحكمها بعض رجال هم أصحاب الحل والعقد ، يجتمعون في مقر خاص عرف بدار الندوة ، يناقشون فيه أمورها ويعالجون قضايا الناس والحياة .

أما يثرب فقد تنازع السلطان فيها الأوس والخزرج ، وبعد جدل وحرب بينهما رأوا أن يكون الحكم بينهم بالتناوب ، سنة للأوس وسنة للخزرج فيعتلي السلطة ملك كل عام . وكان يحكم سائر المدن العربية عند ظهور الإسلام حكام يلقبون أنفسهم ملوكاً . إلا أن نوع الحكم لم يكن معروفاً ، والظاهر أنه استبدادي مطلق .

أما البدو فقد ساد فيهم النظام القبلي ، فلم تكن بينهم حكومة ترعى القانون وتنفذه ، وتنشر العدل والرخاء بين ظهرائهم ، إنما كانت كل قبيلة دولة مستقلة ذات كيان إقليمي خاص لها حدودها وحرمة (الحمى) ، وهذا الحمى مقدس عند القبيلة لا ينبغي أن يمسه أجنبي ، وكان أفراد القبيلة وحدة متراسة متعاونين للمحافظة على شرف القبيلة وحماها وهم متساوون في ما بينهم ولا يدينون بالطاعة والولاء إلا لرئيس

قبيلتهم، وكان الفرد يعتمد على القبيلة في كل ما له من حقوق، فنشأت العصبية القبلية، وكان جميع الأفراد يختارون مجتمعين رئيس قبيلتهم (الشيخ) ليكون المعبر عن أمانهم والمدافع عن قضاياهم، وأوامره مستمدة من مداولات مجلس القبيلة، وكان الرئيس يختار من ذوي الشخصيات القوية، تتحقق فيه سمات الوقار والخزم والتضحية والإيثار والسخاء والشجاعة والقوة والحلم والصبر والتعقل، له خبرة بطبائع النفوس ومعالجة الأمور، يتسم بالإخلاص والأمانة والوفاء، ويسهر على المصلحة العامة.

وتظل القبيلة متمسكة بكل فرد من أفرادها ما دام يسير وفق قانونها وإرادتها، فإذا خرج عن ذلك خلعت من جماعتها ونفته من مجلسها وطردته من بينها، ثم إنها تتصل منه على رؤوس الأشهاد وتعلن تبرؤها مما اقترفه من أعمال.

ولشدة اهتمام القبائل بالقرابة والصلة العصبية، أحتموا بالأنساب، ونرى أثر ذلك في أشعارهم التي تفيض بذكر الآباء والأجداد والبنين والأحفاد، كما اشتهر قوم منهم بمعرفة أنساب العرب فسموا بالنسابين.

وكان الشعراء في قبائلهم لسان حالهم، والمدافعين عنهم والمذيعين لأمجادهم ومآثرهم والمخلدين تراثهم وأمجادهم.

حالتهم الاجتماعية :

أثر نظام شبه الجزيرة القبلي وجذب الصحراء وضيق الأفق والرحيل في تكوين عادات العرب وسلوكهم الاجتماعي .

فحب البدوي لقبيلته جعله يتجاهل غيرها ولا يعرف بحق الملكية لأحد سواه، فكانت الحروب والغارات إلا في الأشهر الحرم، والقبيلة المنهزمة لا ترضى بالنتيجة، فلا بد من الانتقام والأخذ بالثأر، حتى صار من العار على القبيلة ألا تأخذ بثأر قتلاها، وكانوا يعتقدون أن روح القتيل تخرج من قبره على هيئة طائر سموه الهامة وتصيح قائلة اسقوني ولا تكف عن الصراخ حتى يؤخذ بالثأر، فكل معركة كانت تتبعها معارك، وكل ثأر يتبعه ثأر آخر، حتى أصبح التراب العربي ميدان قتال لا يتوقف. كما أن حب العربي لنفسه ولعشيرته جعله يبالغ في فهم معنى الشرف، مما أوجد في نفسه الحمية الجاهلية، لذلك كان العرب يثورون لأتفه الأسباب، وكانت المرأة هي النقطة الحساسة في شرفهم، فأحاطوها بسياج من القيود وخافوا عليها من السبي والعار فلجأ كثير منهم إلى الوأد، وهو عمل منكر، استنكره كثير من الجاهليين .

وشاع لدى العرب إكبار الجميل وصنع المعروف ومساعدة

المحتاجين وإغاثة الملهوفين أقارب أم أباعد وإكرام النازل
وحماية الجار:

أجود على الأبعد باجتماع
ولم أحرم ذوي قربي وإصر
كما أنهم عظموا الكرم، وكانوا يوقدون ناراً يهتدي بها
الضيوف والضالون ويعرفون بها منازل القوم فيقدون حيث
يجدون الترحيب الجميل والمقام الكريم.

وبالغ الجاهلي وأسرف إلى حد الإتلاف، وشرب الخمر
ولعب الميسر وعشق الفروسية. كما كثر في الصحراء الواسعة
الصيد والصيدون، فاقْتَنَتِ الجوارح من الطيور والحيوانات
كالصفور والكلاب، ودُرِبَت على الطرد والقنص.

وكان من أثر العصبية القبلية أن وجدت الحرية الشخصية،
ولم يكن للحرية الاجتماعية وجود، فشاعت الفوضى وكانت
الغلبة بينهم للقوة والبطش والسيادة للظلم والطغيان. وكان
من أثر الحياة القاسية أن وجدت لديهم عادات ومعتقدات
مدهشة بعيدة عن العقل والمنطق، ومنها الكهانة وتعني إدعاء
علم الغيب، والعرافة وتختص بمعرفة الأحداث الماضية،
والقيافة وهي الاستدلال من الآثار على الأعيان، والفراسة
وهي الاستدلال بالنظر إلى وجه الإنسان على ما أضمره في

نفسه، وبلاستماع إلى كلامه على أمره، وبالنظر إلى هيئته على صناعته وإلى تقاطيع سحته على أخلاقه، ثم الريافة وهي الاستدلال بالنظر إلى تربة الأرض وأعشابها على أمكنة الماء، والعيافة وهي زجر الطير، كأن يرمي بحصاة أو أن يصيح الرجل به، فإن فرّ يميناً تفاءل به، وإن يساراً تشاءم به. وشاع في العرب طرق الحصى بعضها ببعض الآخر عند السؤال فيدعي الطارق بذلك معرفة الجواب، ولكن كثيراً من الشعراء أنكروا الزجر وعارضوا فكرته كقول لبيد:

لعمرك ما تدري الطوارق بنالحصى
ولا زاجرات الطير ما الله صانع

ومارسوا الاستقسام بالأزلام، فكانوا إذا أرادوا فعل أمر لا يدرون ما الشأن فيه أخذوا أقداحاً كتب على بعضها إفعل وعلى بعضها لا تفعل وعلى بعضها نعم وعلى بعضها الآخر لا، ثم أتوا سادة الكعبة فيضرب لهم بتلك الأقداح فما خرج له عملوا به. ولعبوا الميسر وهو ضرب من القمار، يعتبر من مفاخر العرب في العصر الجاهلي لأنهم كانوا يفعلونه في أيام الشدة والقحط والجوع.

وعبد الجاهليون الأصنام والأوثان وحملوا التماثيل والتعاويز للمداواة، وعلقوا الحلى على اللديغ ليشفى، إذ

أنهم كانوا يشغلونه بصوت الحلي عن النوم كي لا ينام
ويسري السم في جسمه .

حالتهم الدينية :

عرفت شبه الجزيرة العربية أدياناً مختلفة، كل منها له
تطلعاته ومعتقداته ومنها : اليهودية دين موسى (عليه السلام)
نسبة إلى يهودا أحد أسباط إسرائيل ، والنصرانية دين المسيح
(عليه السلام) نسبة إلى الناصرة أول قرية بث فيها دعوته ،
فقبل ناصري ونصراني ودخلت النصرانية بلاد العرب زمن
الحواريين تلامذة وخلفاء السيد المسيح . والثنية وكان يعتنقها
معظم العرب الجاهليين ، إذ كانوا يعبدون الأصنام والأوثان
مدعين أنها تشفع لهم عند الله . وكان لكل قبيلة صنم أو أكثر
ومعظمها كان عند الكعبة حتى بلغت ثلاثمائة وستين صنماً .

الصابئة عبدة الكواكب ، يعتقدون في الأنواء ، والمجوسية
عبدة النار وكانت في العرب في تميم ومن طقوسها الحلف
بالنار والرماد وزواج البنات .

والزندقة من الثنية وعقيدتها القول بالنور والظلمة ، وإن
الصانع اثنان إله نور وإله ظلمة والأول خير والثاني شر ، وهما
قديمان لم يزالا ولن يزالا قوين حساسين الموحدون وكانوا
قلة عبدوا الله وحده ولم يشركوا به أحداً ، ومنهم ورقة

ابن نوفل وحنظلة بن صفوان وقس بن ساعدة الايادي
وزهير بن أبي سلمى والنابعة الجعدي .

اتصالاتهم ومعارفهم :

كان العرب الجاهليون على اتصال ببعضهم البعض ،
وبغيرهم ممن جاورهم أو بعد عنهم ، إذ أنهم لم يكونوا
ليستطيعوا أن يعيشوا بمعزل عن العالم الخارجي ، كما أن
العالم الخارجي يهمه أن يكون على صلة بهم ، وهكذا
اشتدت صلة العرب بغيرهم من الأمم وبخاصة الفرس والروم
والحبشة والهند ، وقوى هذا الاتصال وجود إمارات عربية في
الحيرة وغسان ونجد ، ولم تكن التجارة فقط هي الصلة
الوحيدة ، فقد حمل التجار إلى جانب السلع طائفة من
الأفكار والعادات والتقاليد ، واللغات ، كما أنهم نقلوا شيئاً
أهم وأعظم قيمة من التجارة هو حروف الهجاء ، وهي نفسها
حروف القرآن الكريم . وقد أسهمت التجارة والرحلات في
الكشف عن كثير من ظواهر الحضارة والمدنية ، فتأثرت كل
أمة بالأخرى .

وكان العرب على جانب من المعارف ، أسهمت العلاقات
الأنفة الذكر في تكوين بعضها ، فقد اطلعوا على أخبار الأمم
السابقين وغيرهم بما كانوا يروون من القصص ، فمن سكن

الحيرة وجاور العجم قد حوى علم الأعاجم وأخبارهم وكذلك من سكن الشام خير بأخبار الروم واليونان، ومن رحل إلى البحرين أتته أخبار طسم وجديس ومن وقع بعمان أتته أخبار السند والهند، ومن مر باليمن أتته أخبار الأمم جميعاً. ولشدة اتصال العرب بالصحراء الواسعة عرفوا كثيراً عن صفات الأرض وخصائص الحيوان والحشرات وأنواع الأشجار وعرفوا شيئاً عن النجوم وأبراجها.

كما أنهم عرفوا الكثير عن تركيب أجسام الحيوانات وعن أمراضها وعللها فتكون لديهم شيء من طب البيطرة.

كذلك دفعتهم ظروف الحياة إلى إجراء تجارب على أجسامهم حينما كانت تلم بهم العلل والأسقام، فعرفوا شيئاً من الطب، إذ كانوا يعالجون بالأشربة المتخذة من العسل والمركبات المصنوعة من بعض الأخلاط واستعملوا الكي بالنار لذلك شاع في الجاهلية هذا المثل (آخر الدواء الكي) وعرفوا الحجامة وقد اشتهر منهم أطباء كالحارث بن كلدة الثقفي والذي درس الطب في بلاد فارس وابنه النضر بن الحارث ثم ابن رومية التميمي وكان جراحاً ماهراً وابن حذيم وكان يضرب به المثل في الطب.

ولما كانت القبيلة وحدة سياسية واجتماعية كاملة، فقد اهتموا بحفظ الأنساب واشتهر منهم كثير بحفظ أنسابهم

وأنساب القبائل الأخرى حتى عرفوا بالنسابين. ثم إن أحاديثهم في مجالسهم وتنافسهم في مجتمعاتهم، خاصة في الأسواق ومواسم الحج أوجد عندهم نهضة بلاغية حتى اشتهروا بالفصاحة والبيان، وما تركوه من شعر هائل رائع ومن نثر جميل يدل على بلوغهم مرتبة عليا في الذوق الأدبي الرفيع. لذلك كثر الشعراء، وغص بهم كل ناد ومكان، وما وصلنا منه شيء قليل، كما أن الغرب الجاهليين تركوا ثروة من الحكم والأمثال تكشف عما كان لديهم من خبرة قوية بالحياة وأحوال النفس البشرية، ومن أشهر حكمائهم أكتم بن صيفي وعامر العدواني. وساعدت الظروف التي عاشوا فيها على كثرة الحروب والغارات، فتكونت لديهم خبرات عن القتال وأدواته فعرفوا الرماح والسيوف والقيس والسهام والدرع والترس وحركات الكر والفر والظعن والضرب والرمي، وشعر الحرب خير شاهد على ذلك.

وقد كانت بلاد العرب محاطة بالبحار لذلك استغلوا المكان بالصيد، وبالتجارة مع الهند والحبشة والروم، فاضطروا إلى ركوب البحر ومعنى ذلك أنهم كانوا على شيء من علم الملاحة وصناعة السفن بدليل قول عمرو بن كلثوم:

ملأنا البر حتى ضاق عنا
وماء البحر نملؤه سفينا

والملاحة اضطرتهم إلى معرفة كثير من النجوم والكواكب
للاهتمام بها في سيرهم عبر البحار. أما علم الخط والكتابة،
فلم يكن ينتشر بينهم، وإنما كان موجوداً فيهم، وقد ورد في
قصائدهم وأخبارهم ما يدل على ذلك، لذلك اعتمدوا على
ذاكرتهم في حفظ الشعر والنثر، ويقال بأن مرارة بن مرة
الأنباري هو أول من كتب العربية واخترع الخط
العربي. وهكذا حفل العصر الجاهلي بثروة هائلة من الشعر
والشعراء، ولو وصلنا كله لما استطعنا له حصراً. وكان فيه
شعراء مبرزون شغلوا العصر الجاهلي وظلوا الشغل الشاغل
لكثير من الكتاب والأدباء في الماضي وفي الحاضر. ومن
هؤلاء شاعرنا لبيد بن ربيعة العامري.

■ السيرة الذاتية
■ السيرة الأدبية

السيرة الذاتية :

ليد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن قيس بن عيلان بن مضر، قدم على النبي مع وفد قومه بني جعفر بن كلاب، فأسلم وحسن إسلامه، فهو أحد شعراء الجاهلية المعدودين فيها والمخضرمين، ومن أشراف المجيدين الفرسان القراء المعمرين.

يكنى أبا عقيل وكان يقال لأبيه ربيعة المقترين لجوده، قتلته بنو أسد وعمه أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة في يوم ذي علق وليد آنذاك لما يتجاوز التاسعة من عمره، ولقب عمه بهذا الاسم لقول أوس بن حجر فيه :

فلاعب أطراف الأسنة عامر

فراح له خط الكتيبة أجمع

أما أمه فهي تامة بنت زنباع العبسية إحدى بنات جذيمة بن رواحة. ويكاد يكون تاريخ مولده مجهولاً، لذلك فهو مصدر تباين بين المؤرخين، ولو أخذنا بأخبار الأغاني بأنه مات في آخر أيام معاوية بن أبي سفيان وكان عمره مئة وخمسة وأربعين عاماً (١٤٥) لعلمنا أنه ربما يكون قد ولد

سنة ٥٣٤ م تقريباً، لأن الأصفهاني يرى أن الشاعر عاش تسعين سنة في الجاهلية وخمسة وخمسين في الإسلام، ومهما يكن فإن ليبدأ كان من المعمرين، فعمره لم ينقص عن مئة وعشر سنوات (١١٠) في ما ورد من أخبار.

شارك قومه بني جعفر في الارتحال عن ديارهم نحو نجران بعد صدور حكم بنفيهم من زعيم أبي بكر جواب بن عوف، وهاك نسمع ليبدأ يتهم على جواب فيقول له:

أبني كلاب كيف تُنفى جعفر
وبنو ضبيضة حاضرو الأجباب

وفي المنفى اتصل ليبدأ ببعض الأمراء اليمينيين والأحباش ومنذ ذلك الوقت بدأ اسمه يلمع على أنه لسان قومه، فقد توسط عند الأمير الحبشي (خمير) في رد إبل على صاحبها فاستجاب الأمير إلى سؤاله وكتب له بذلك كتاباً وأعطاه جماعة من الغلمان الأحباش الشاكي السلاح.

ولم يشأ ليبدأ أن يخرج على مباديء الوثام والوفاق التي سادت من جديد بين قبيلته وبين قبيلة بني أبي بكر وزعيمها جواب، وكانت نفس ليبدأ قد هدأت إثر النفي فأنشد قائلاً:

فابلغ بني بكر إذا ما لقيتهم
على خير ما يلقي به من تزعما

أبونا أبوكم والأواصر بيننا
قريب ولم نأمر منيعاً ليائماً.

وهكذا أخذ نجم لبيد في الصعود، ولما شكل أهله وفداً
للتسليم على النعمان وتهته بالملك كان لبيد معهم، إلا أن
الربيع بن زياد وهو خال لبيد كان يحقد على بني جعفر،
لذلك أخذ يصدّ الملك عنهم وينصحه بعدم استقبالهم
والاحتفاء بهم، وغاية القول أن لبيداً انتصر لأعمامه ونظم
أرجوزة قالها أمام النعمان وبحضور الربيع بن زياد وفيها كان
المدافع الصلب عن حق قومه:

نحن بني أم البنين الأربعة
ونحن خير عامر بن صعصعة
المطعمون الجفنة المدعدة
والضاربون الهام تحت الخيضة
وانتزع بذلك حقوقهم إذ أمر النعمان بقضاء جميع حوائج
الجعفرين.

وهي حادثة ظل يفتخر بها في شعره وقد سجلها في
معلقته:

وكثيرة عزباؤها مجهولة
ترجى نوافلها ويخشى ذامها.

وكان لبيد يقف دائماً موقف المفاخرة أمام الملك في وفادته المتكررة عليه ويخطط بقوسه في الرمل خطوطاً بعدد مفاخرة كما كان يفعل الأبطال.

وقد عززت هذه المواقف من تجربة لبيد وعمقت شخصيته وشهرت إسمه كشاعر في الآفاق، وكفلت له تقدير القبيلة وجعلته يتعرف إلى أبهة الملوك ورفعت من منزلة النعمان في نفسه لنراه يرثيه عندما توفي سنة ٦٠٢ م بقصيدة باكية، ويتميز رثاؤه بنغمة دينية مستمدة من الإحساس بجبروت الموت.

إلى جانب ذلك، كان لبيد من أجود العرب، وقد آلى في الجاهلية ألا تهب صبا إلا أطمع، مما جعل الولاة يستنجدون به في الملمات، ويروى أن المغيرة بن شعبة كان إذا هبت ريح صبا، خطب الناس وقال لهم: أعينوا أبا عقيل على مرثته، كذلك كان يفعل الوليد بن عقبة والي الكوفة، فإذا هبت صبا قال للناس: أعينوا أبا عقيل وأنا أول من فعل. ويصدق حديث الرواة في هذا قول لبيد نفسه:

وجزور أيسار دعوت لحتفها
بمغالق منشابه أجسامها

أدعو بهن لعاقر أو مفضل
بذلت لجيران الجميع لحامها

وفي الإسلام كان لبيد من القوم الذين حُسِّن إسلامهم،
ويظهر أن الإسلام كان عميقاً في نفسه، يدل على ذلك سؤال
الوليد بن عقبة عما كان بينه وبين الربيع بن زياد عند النعمان
فقال له لبيد: هذا كان من أمر الجاهلية وقد جاء الله عز وجل
بالإسلام. ولما كتب عمر بن الخطاب إلى المغيرة بن شعبه
وهو على الكوفة أن يستنشد شعراء المصير أرسل إلى لبيد
فقال له إن شئت فاعفني، فقال لا أنشدني ما قلت في
الإسلام، فكتب له سورة البقرة في صحيفة ثم أتى بها وقال:
أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر فزاد عمر في عطائه
خمسمائة.

ويقال بأنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً يشكر فيه ربه
الذي أنعم عليه بنعمة الهداية والرشاد:

الحمد لله الذي لم يأتني أجلي
حتى لبست من الإسلام سربالا
وقبل أن يأتي الإسلام، كان قلب لبيد مفعماً بالإيمان
بالله، مطبقاً لكثير من الشواهد على قوة إيمانه بالله وبالموت
والحياة.

وغاية القول أن لبيداً قد أسلم، وأتى المدينة فأقام فترة فيها، ثم هاجر إلى الكوفة لعهد عمر بن الخطاب وقضى فيها بقية حياته. مقبلاً على القرآن الكريم يحفظه ويتأمل أبعاده ومراميه.

السيرة الأدبية:

سبق وذكرنا أن لبيداً كان من أشرف الشعراء المجيدين المقدمين، وقد جعله ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات الشعراء في الطبقة الثالثة مع النابغة الجعدي وأبي ذؤيب الهذلي والشماخ بن ضرار، وقال عنه: كان لبيد بن ربيعة أبو عقيل، فارساً وشاعراً شجاعاً، وكان عذب المنطق، رقيق حواشي الكلام، وكان مسلماً رجل صدق.

كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكل نعيم لا محالة زائل

وذكره الأصمعي فلم يعده من الشعراء الفحول، إلا أنه قال: شعر لبيد كأنه طيلسان طبري ومعنى ذلك أنه جيد الصنعة، كما ذكر أن أبا عمرو بن العلاء كان يقول: (ما أحُدُّ أحبُّ إليَّ شعراً من لبيد بن ربيعة، لذكره الله عز وجل وإسلامه ولذكر الدين والخير، ولكن شعره رحي بزر).

أما ابن رشيقي صاحب العمدة فقد ذكر أن ذا الرمة قال:
ليبد أشعر الناس؛ ويروى أن النابغة الذبياني نظر يوماً إلى
ليبد وهو صبي مع أعمامه علي باب النعمان بن المنذر،
فسأل عنه فنسب له، فناداه قائلاً: يا غلام إن عينيك لعينا
شاعر، أفقرض من الشعر شيئاً، قال نعم يا عم وأنشده:

ألم تربع على الدمن الخوالي
لسلمى فالمذائب فالقفال

فقال له: أنت يا غلام أشعر قومك فأنشدني أيضاً، فقال:

طلل لخولة بالرسيس قديم
فبعنا قل فالأنعمين رسوم

فضرب بيديه على جنبه وقال: إذهب فأنت أشعر قيس كلها،
ثم قال هوأزن كلها.

ثم قال له أنشدني أيضاً فانطلق ليبد قائلاً:

عفت الدينار محلها فمقامها
بمنى تأبد غولها فرجامها

فقال له النابغة: إذهب فأنت أشعر العرب.

ويحكى أن الفرزدق سجد عندما سمع أحدهم ينشد قول
ليبد أمام مسجد بني الأقيصر بالكوفة:

وجلا السيول عن الطلول كأنها
زُبُرُ تجد متونها أعلامها

ف قيل له : ما هذا يا أبا فراس ؟ فقال : (أنتم تعرفون سجدة
القرآن ، وأنا أعرف سجدة الشعر) وحكم الفرزدق يحمل
الكثير من المعاني .

ولم ينس ليبد أن يحكم على شعره بنفسه ، فقد سأله قوم من
بني نهـد عندما مرّ أمام مجلسهم بالكوفة من أشعر العرب ؟ فقال :
الملك الضليل ذو القروح ، وذلك هو أمرؤ القيس ، ثم سأله ثم
من : فقال : الغلام القتيل من بني بكر ، ويعني به طرفة بن العبد ،
وعندما سأله للمرة الثالثة ثم من فقال : صاحب المحجن يعني
نفسه وكان يتوكأ على محجن له .

وعندما أرسل جماعة من القراء ابن عياش إلى ليبد يسأله عن
أشعر العرب وهو في المسجد وفي يده محجن أجابه : الملك
الضليل ذو القروح ، ثم عادوا فأرسلوه إليه فقال له : ابن ثمانى
عشرة سنة طرفة بن العبد ، وفي المرة الثالثة قال : صاحب
المحجن حيث يقول :

إن تقوى ربنا خير نفل
وبإذن الله ريشي وعجل
أحمد الله ولا ند له
بيديه المخير ما شاء فعل

من هداه سبل الخير اهتدى
ناعم البال ومن شاء أضل
يعني نفسه. ثم قال أستغفر الله.

وكان الخليفة العباسي المعتصم يعجب بشعر ليبد، فسأل
يوماً جلساءه من يروي قصيدة ليبد (بلينا) فقال أحدهم أنا،
فقال له أنشدنيها:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع
وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
فبكى المعتصم ثم اندفع هو ينشد ويقول:

فلا جزع إن مزق الدهر بيننا
فكل امرئ يوماً له الدهر فاجع
وقال: فوالله لعجبنا من حسن ألفاظه وصحة إنشاده
وفصاحته وجودة اختياره.

ويحكم طه حسين على معظم قصائد ليبد بالجودة ورصانة
اللفظ وجزالته وجماله، وروعة الأسلوب وصدق التعبير، وهو
يرى أن معلقته خليقة أن تكون من أروع ما حفظ الشعر
العربي.

تلك شهادات في ليبد وشعره. وكلها تجمع على أنه شاعر

مجيد، دؤم في الأعالي وكانت له مزايا في الشعر وفي الشخصية لم تكن لسواه .

وتكاد معاني شعره تنطبق تماماً مع الصور التي رسمتها المصادر عنه، فقد كان رجلاً مؤمناً عاقلاً رزيناً ألياً بعيد النظر، محترماً في قبيلته وبني قومه فارساً شجاعاً كريماً، خبير الحياة وأحسن بمرارتها فعمل جهده على أن ينقيها من كل ألوانها الباهتة لتصبح نقية جميلة حية .

وديون لبيد ينطوي على كثير من أغراض الشعر وفنونه . وأشهر ما فيه المعلقة .

وتكاد قصائد وصف الصحراء وحيواناتها ومظاهر الرحيل ، علاوة على قصائد الفخر والثناء تستغرق ثلاثة أرباع الديوان إن لم يكن أكثر من ذلك .

واشتهر لبيد بشعر الرجز وبرع فيه ، وله في هذا المضمار عدة قصائد مبثوثة في أرجاء ديوانه .

وتظل المعلقة الجزء الأهم ، ففيها وقف على الأطلال وتغزل وافتخر ووصف الصحراء وما فيها من ظباء وأتان وبقر وحشي وكلاب وأشار إلى مظاهر الطبيعة فذكر شتاءها وربيعها وصيفها وأمطارها وحرها وسحابها ونباتها ، وتحدث عن مظاهر الرحيل ووصف ناقته وصفاً دقيقاً وعبر عما يخالجه من

مشاعر الحزن والألم والحيرة، وعما يتغيه من حياة سعيدة قائمة على الحق والإباء والبهجة والفرح، ثم لجأ إلى الفخر، فتحدث عن خصال نفسه وشمائل قومه ومزاياهم.

ومعلقة لبيد تعتبر الرابعة بين أخواتها. لم ينظمها الشاعر لحادثة جرت له أو مرت معه وإنما كانت استجابة لدافع نفسي ورغبة ذاتية. ولعله تفوق فيها على أقرانه بإثارة الذكريات القديمة وتحديد محطات السفر حتى أن دارس شعره باستطاعته أن يعين دليل رحلة تبدأ من قلب بادية العرب وتنتهي على الخليج الفارسي.

وقد عني أئمة اللغة والأدباء بشعره كثيراً فجمع ديوانه غير واحد منهم: أبو عمرو الشيباني والأصمعي والطوسي وابن السكيت والسكري وشرحه محمد بن حبيب والطوسي، كما أن معلقته قد شرحت مع سائر المعلقات على يد ابن النحاس وابن الأنباري والتبريزي والزوزني وحديثاً على يد الدكتور مفيد قميحة، كما نشرتها دار صادر في بيروت.

الفنون الشعرية

- الحكمة.
- الرثاء.
- الوصف.
- الفخر.

١- الحكمة والتأمل :

في شعر لبّيد لمحات حكمية، تنبث في كثير من قصائده كما ينتشر العطر في الأجواء، فتراه من خلالها إنساناً مؤمناً بالله وبإحتمية الحياة والموت وبقضاء الرحمن وقدره، ملتزماً قيماً أخلاقية حميدة ومبادئ إنسانية جعلته موقراً في جاهليته وفي إسلامه. وحكمة لبّيد ليست بالعميقة ذات الأبعاد الواسعة، يكفي أنها شاملة خالدة، ترافق كل جيل وكل تاريخ. وقد درسنا في باب الرثاء قصيدته العينية التي قالها في تأبين أخيه أربد، وفي الحقيقة أنها تفيض بالحكم والمثل، ففي كل بيت منها حكمة وموعظة تكشف عن نظر ثاقب وبعيد في طبيعة الكون والحياة.

وله في قصيدة رائية معان حكمية كثيرة، يؤيد فيها أن لا سلامة للإنسان من قدر الموت، لذلك عليه أن يتزود بالهدى والصلاح والعمل الطيب، وأن يشتري بماله الحمد والذكر الحسن، وإن كان الإنسان يرى نفسه سالماً معانٍ، فإن أمره لا يدوم إلى الأبد، فكل الناس سائرون إلى مصير واحد، وما النفس إلا متعة تعار للإنسان وتستعاد منه :

أعاذلَ قومي فاعذلي الآن أو ذري
 فليستُ وإن أقصرتُ عني بِمُقَصِّرٍ^(١)
 أعاذلَ لا والله ما من سَلَامَةٍ
 ولو أشفقتُ نفسُ الشحيحِ المِثْمَرِ^(٢)
 أفي العِرْضِ بِالمالِ التَلَادِ وأشتري
 به الحمدُ إن الطالبَ الحمدَ مُشْتَرِي^(٣)
 وكم مُشْتَرٍ من ماله جُسنَ صِيتِهِ
 لأيامه في كل مَبْدَى وَمَخْضَرٍ^(٤)
 فلما تريني اليومَ عِنْدِكَ سَالِماً
 فليستُ بِأخِيَا من كِلَابٍ وجَعْفَرٍ^(٥)
 وإنا وإخواننا لنا قد تتابعوا
 لكالمغتديِّ والرائحِ المْتَهَجِرِ^(٦)
 هل النفسُ إِلَّا مُتَعَةً مُسْتَعَارَةٌ
 تُعار فتأتي رَبُّهَا فَرُطَ أَشْهُرٍ^(٧)

(١) أقصرت: كفتت عن العذل.

(٢) المِثْمَر: جامع الأموال.

(٣) التَلَاد: المال الموروث، العِرْض، الشرف، أو طيب الثناء.

(٤) الصِيت: الشرف والذكر.

(٥) كِلَاب وجعفر هما من أقرباء ليبد.

(٦) تتابعوا: تعاقبوا في هذه الحياة.

(٧) فرط أشهر: بعد أشهر.

وفي قصيدة أخرى يتأمل الشاعر الوجود، ويشكف عن
إيمان عميق بالله عز وجل، فله كل شيء أمره نافذ وقضاؤه لا
يتبدل، كتابه محفوظ وعرشه دونه السبع الطباق، خلق
الأرض فيها رواسي بإذنه وجعل الماء والنيران آيات وموعظة
لقوم يعقلون، فتدبر أيها الإنسان أمرك فكل ما تبنيه سراب إلا
إيمانك وتقواك :

لله نافلةُ الأجلِ الأفضلِ
وله العلى وأئيتُ كل مؤثِّل^(١)
لا يستطيعُ الناسَ مخو كتابه
أنى وليس قضاؤه بمُبدِّلِ
سوى فأغلقَ دون غُرَّةِ عرشه
سبعاً طباقاً فوق فرع المنقل^(٢)
والأرضَ تحتهم مهاداً راسياً
ثبَّتْ خوالقُها بصم الجنْدَلِ^(٣)
والماء والنيران من آياته
فيهن موعظةٌ لمن لم يجهلِ

(١) الأئيت: الكثرة. المؤثِّل: الدائم الراسخ الأصول.

(٢) المنقل: ظهر الجبل. المعقل: الحصن أو الجبل.

(٣) الخوالق: الجبال الملس.

بل كُلُّ سَعِيكَ باطلٌ إلا التَّقَى
فإذا انقضى شيءٌ كان لم يُفعل

والقصيدة كلها تنبض بالمعاني الحكيمة، إلا أن ما ورد من أبيات منها كان أعم وأشمل، والملاحظ أن كثيراً من هذه المعاني والكلمات تتطابق حرفياً مع بعض ألفاظ القرآن الكريم، وهذا ما يجعلنا نشك في الرواية التي تقول أن لبيداً قال بعد إسلامه بيتاً واحداً من الشعر، فهذه القصيدة أكثر التصاقاً بالإسلام من الجاهلية، علماً أن الشاعر عاش في الإسلام خمسة وخمسين عاماً ولا أظن أنه قضاها دون نظم الشعر، وخاصة ذلك الذي يتوافق مع الدعوة الإسلامية ويبشر بالدين الجديد. وعلى هذا فالأرجح أن تكون هذه القصيدة من وحي الإسلام، وأن لبيداً قالها في عصره الإسلامي.

وفي مستهل رثائه للنعمان بن المنذر يعرض لبيد طائفة من حكمه وتأملاته في الإنسان والحياة، فينصح المرء ألا يقع في ضلال، فالدنيا غير خالدة له، لأن مصايد الموت له بالمرصاد، وعمل المرء لا ينتهي إلا بانتهاء حياته، ثم يدعو الإنسان كي يتعظ من الدهر فهو لا يستطيع استعادة الماضي، ولا النجاة مما هو مرسوم له، ثم وإذا كان لا يصدق فلينظر إلى ما حل بأجداده الأوائل، لعل القرون السابقة تهديه إلى

الصواب، فكل شيء إلى زوال سوى الله، والعاقل هو الذي يتوسل إلى الله بالطاعة والعمل الصالح:

ألا تسألان المرء ماذا يُحَاوِلُ
أَنَحِبُ فَيَقْضِي أَمْ ضَلَالٌ وَبَاطِلُ
حَبَائِلُهُ مَبْثُوثَةٌ بِسَبِيلِهِ
وَيَفْنَى إِذَا مَا أَخْطَأْتُهُ الْحَبَائِلُ^(١)
إِذَا الْمَرْءُ أُسْرَى لَيْلَةً ظَنُّ أَنَّهُ
قَضَى عَمَلًا وَالْمَرْءُ مَا عَاشَ عَامِلُ
فَقُولَا لَهُ إِنْ كَانَ يَقْسِمُ أَمْرَهُ
أَلَمَّا يَعْظَمُكَ الدَّهْرُ أُمُّكَ هَابِلُ^(٢)
فَتَعْلَمَ أَنْ لَا أَنْتَ مَدْرِكُ مَا مَضَى
وَلَا أَنْتَ مِمَّا تَحْذَرُ النَّفْسُ وَائِلُ^(٣)
وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَصْدُقْكَ نَفْسُكَ فَانْتَسِبْ
لَعَلَّكَ تَهْدِيكَ الْقُرُونُ الْأَوَائِلُ
أَرَى النَّاسَ لَا يَدْرُونَ مَا قَدَرُ أَمْرِهِمْ
بَلَى: كُلُّ ذِي لَبٍ إِلَى اللَّهِ وَاسِلُ^(٤)

(١) الحبايل: المصايد. مبثوثة: موضوعة.

(٢) يقسم: يقدر ويتدبر. هابل: تاكل.

(٣) وائل: ناج.

(٤) واسل: المتخذ وسيلة.

ألا كُلُّ شَيْءٍ مَا خِلاَ اللهَ باطِلٌ
وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مُحَالَةَ زَائِلٌ
ثم يتابع لبيد فيذكر أن كل امرئ سوف يدركه الموت،
وسيأتي يوم يحاسب فيه كل إنسان عما جنت يده، عندما
يقف أمام الله يوم الحساب:

وَكُلُّ أَنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ
دُوبِيَّةٌ تَضْفَرُ مِنْهَا الْأَنَامِلُ^(١)
وكل امرئ يوماً سيعلم سقيته
إذا كُشِفَتْ عِنْدَ الْإِلَهِ الْمَحَاصِلُ^(٢).
وللشاعر مقطع حكيم جاء في قصيدة طويلة عرض فيها
مشاهد الصحراء والرحيل، وقد ركز لبيد على أهمية الورع
والتقوى في حياة الإنسان فهما التجارة الرباحة والثروة
المفيدة التي يحملها الإنسان إلى مقره الأخير، فلا ينفع
الإنسان إلا ما يتركه من ذكر حسن وما يقوم به من عمل
طيب:

رَأَيْتُ التَّقَى وَالْحَمْدَ خَيْرَ تِجَارَةٍ
رَبَاحاً إِذَا مَا الْمَرْءُ أَصْبَحَ ثَائِلاً^(٣)

(١) دوبيئة: تصغير للتعظيم، أي داهية كبيرة.

(٢) المحاصل: الحسنات والسيئات معاً. وتروى: الحصائل.

(٣) رباحاً: ربحاً. ثائلاً: ميتاً.

وهمل هو إلا ما ابتى في حياته
 إذا قذفوا فوق الضريح الجناد^(١)
 وأثنوا عليه بالذي كان عنده
 وعرض عليه العائدات الأنامل^(٢)
 فدع عنك هذا قد مضى لسبيله
 وكلف نجى الهَم إن كنت راجلاً
 وله قصيدة أخرى مفعمة بالمعاني الحكيمة، قالها حزناً
 على فراق بني جعفر للجزيرة حين خرجوا في الفتوحات
 الإسلامية، وهي دليل ساطع على أن لبيد أنظم الشعر في
 حياته الإسلامية، وانفعل بالدين الجديد:
 إنما يحفظُ التقي الأبرارُ
 وإلى الله يستقرُّ القرارُ^(٣)
 وإلى الله ترجعون وعند
 الله وِردُ الأمور والإصدارُ^(٤)
 كلُّ شيءٍ أحصى كتاباً وعلماً
 ولديه تجلَّت الأسرارُ^(٥)

(١) ابتى: أقام ورفع. الجناد: الصخور.

(٢) العائدات: زائرات المحتضر.

(٣) يقر القرار: ترجع جميع الأمور. التقي: الورع.

(٤) ورد الأمور: بيد الله كل شيء.

(٥) يروي: أحصى كتاباً وحفظاً. تجلَّت: تكشفت.

يوم لا يُذخِلُ المُدَارِسَ في الر
حمة إلا براءة^(١) واعتذار^(٢)

فالأبرار هم حفظة التقى والأمناء عليه، والله سبحانه
وتعالى مرجع البشرية، إليه يعودون وإلى رحمته يفيثون، إنه
عالم الغيب والأسرار، أحصى لكل شيء علماً، ولا يدخل
المذنب في رحمة الله إلا إذا تاب وتبرأ من أعماله واعتذر عن
انحرافه.

ثم يتابع الشاعر مشيراً إلى أن الله أعد كتبة حافظين
يحصون حسنات الإنسان وسيئاته، وأنه وحده الغفور
الرحيم، وهكذا سيذهب الإنسان مهما طال عمره ولا يبقى
إلا تلك الجبال والرمال والنجوم، ولا تخلد إلا الأعمال
الصالحات التي هدى بها الله الإنسان:

وَحَسَنَاتٌ أَعَدَّهُنَّ لِأَشْهَائِهَا
دِ وَغَفْرُ الَّذِي هُوَ الْغَفَّارُ^(٢)
وَمَقَامٌ أَكْرَمُ مِنْ مَقَامِ
وَهَوَادٍ وَسُنَّةٍ وَمَشَارٍ^(٣)

(١) المدارس: المقترف للذنوب.

(٢) حسان: حسنات الأعمال. الأشهاد: الكاتبون: المحصون للحسنات
والسيئات. الغفر: التجاوز عن السيئة.

(٣) هواد: الأمور التي تهدي. مشار: عمل صالح.

إِنْ يَكُنْ فِي الْحَيَاةِ خَيْرٌ فَقَدْ
 أَنْظَرْتُ لَوْ كَانَ يَنْفَعُ الْإِنْظَارُ
 عِشْتُ ذَهْرًا وَلَا يَدُومُ عَلَى الْآ
 يَامٍ إِلَّا يَرْمَرُمُ وَتَعَارُ^(١)
 وَالنَّجُومُ الَّتِي تَتَابَعُ بِاللَّيْلِ
 وَفِيهَا ذَاتُ الْيَمِينِ أَزُورَارُ^(٢)

وفي قصيدة دالية يذكر الشاعر طول عمره وسأمه من الحياة
 مستخلصاً مواعظ وحكمًا خالدة، معلناً عن إيمانه بوحداية
 الله، وهنا يتأكد لنا مرة أخرى أن لبداً قال الشعر في
 الإسلام، لأن هذه القصيدة نظمها وهو في مرحلة
 الشيخوخة:

قُضِيَ الْأُمُورُ وَأُنْجِزَ الْمَوْعُودُ
 وَاللَّهُ رَبِّي مَاجِدٌ مُحَمَّدُ
 وَلَهُ الْفَوَاضِلُ وَالنَّوَافِلُ وَالْعُلَا
 وَلَهُ أَثِيثُ الْخَيْرِ وَالْمَمْدُودُ^(٣)
 وَلَقَدْ بَلَّتْ لَرْمٌ كَنْيْذُهُ
 وَلَقَدْ بَلَّتْهُ بَعْدَ ذَاكَ ثَمُودُ

(١) يرمرم ويعار: أسماء جبال.

(٢) أزورار: ميل.

(٣) النوافل: العطايا والهبات. الأثيث: الكثير الملفف.

خَلُّوا ثِيَابَهُمْ. عَلَى غُورَاتِهِمْ
فَهُمْ بِأَفْنِيَةِ الْبُيُوتِ هُمُودٌ^(١)
وَلَقَدْ سُمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطَوَّلَهَا
وَسَوَّالِ هَذَا النَّاسِ كَيْفَ لَبِيدٌ.

فالشاعر يؤكد من جديد إيمانه بالله الماجد المحمود، فله
ومنه كل شيء، له ومنه الفضل والخير والعطاء والمجد،
فليتعظ الإنسان، ولينظر ما حل بعباد وثمود، وإرم ذات
العماد، ثم يعلن بعد ذلك سأمه من طول الحياة مذكراً بما
قاله زهير بن أبي سلمة في هذا الشأن حيث قال:

سُمْتُ تَكَالِيفِ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ
ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسَامُ
وَلَبِيدٌ عَاشَ مِئَةً وَخَمْسَةً وَأَرْبَعِينَ عَامًا، فَكَانَ أُخْرَى
بِالسَّامِ.

وفي قصيدة لامية من الديوان يشير لبيد إلى بعض المعاني
الحكمية، ويستهلها بمطلع يفيض بالتقى والإيمان، فهو
يحمد الله الذي لا شريك له، بيده الخير وهو ملكوت كل
شيء، ويرى أن تقواه فضل لا يقاس بفضله، بإذنه يتحرك

(١) الألفية: جمع فناء وهو ساحة الدار. همود: موتى.

الإنسان، ومن تبع تعاليمه اهتدى ومن خالفها وحاد عنها ضلَّ
وهوى:

إِنْ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفْلُ
وَيَاذَنْ اللَّهَ رَبِّي وَعَجَلَ^(١)
أَحْمَدُ اللَّهَ فَلَا يَدُّ لَهُ
بِيَدِهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلَ
مَنْ هَدَاهُ مَبْلُ الْخَيْرِ اهْتَدَى
نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلَّ.

ثم يتابع متحدثاً عن أهمية البر والإحسان، وضرورة
العمل من أجل النجاح والفوز في الحياة، ويدعو إلى الرحيل
في سبيل الحياة والتطور، ويهاجم الكسل ويحث على
تجنبه، وينصح الإنسان بأن يحدث نفسه دائماً بالظفر وبلوغ
الأمل وليس بالخيبة والفشل، وأن يقهرها بالبر والإحسان:

فَإِذَا جُوزِيَتْ قَرْضاً فَاجْزِهِ
إِنَّمَا يَجْزِي الْفَتَى لَيْسَ الْجَمَلُ^(٢)
أَعْمَلِ السَّعِيسَ عَلَى عِلَاتِهَا
إِنَّمَا يُنْجِحُ أَصْحَابُ الْعَمَلِ^(٣)

(١) يروى: خير النفل، والنفل الفضل والعطية. الريث: الإبطاء.

(٢) الفتى: السيد الكريم. الجمل: الجاهل.

(٣) العلات: الحالات.

وإذا رُمْتُ رَجِيلاً فارتحل
 واعصر ما يَأْمُرُ تَوْصِيمُ الكسل^(١)
 واكذبِ النفس إذا حدثتها
 إن صِدْقَ النفس يُزْري بالآمل^(٢)
 غير أن لا تَكْذِبْنَهَا إذا حدثتها
 واخْزُهَا بِالْبِرِّ لَهِ الأَجَلِ^(٣)
 وبعد، أظن أن ليبدأً كان شاعر الحكمة والتأمل بحق،
 والديوان غني بومضات حكمية، إكتفينا بالإشارة إلى قسم
 منها، ولعل عمره الطويل الذي قارب قرناً ونصف قرن من
 الزمن زوده بتجارب من الحياة والوجود، إنعكست على
 شعره.

(١) التَّوْصِيمُ: التَّكْثِيرُ والتَّغْفِيرُ.

(٢) أي حدث نفسك بالظفر دائماً لتُنشِطَهَا ولا تُحَدِّثَهَا بِالْخِيَةِ فَتُشْبِطَهَا.

(٣) اخْزُهَا: أَقْهَرَهَا. الْبِرُّ: الْمَعْرُوفُ. التَّقَى: الْوَرَعُ.

الرثاء أو في العالم الآخر .

برع لبيد في فن الرثاء وأجاده، وأثار إعجاب القدماء والمحدثين . مما حدا بطله حسين إلى تفضيله على الخنساء، خاصة في تصوير الحزن . والديوان مليء بقصائد التفجع والتأسي، فلبيد شاعر قبيلته يمدح أحياءها ويرثي موتاهـا . لذلك انقسم الرثاء عنده إلى قسمين : رثاء عام يتعلق بأفراد قبيلته وغيرهم، ورثاء خاص كان معظمه إن لم يكن كله في أخيه لامة أربد، وهذا ما سنشير إليه، وقد محض لبيد أخاه غرر معانيه ودفق مشاعره وأحاسيسه، وقد غيرت طبيعة وفاة أربد حياة لبيد، وكانت الحد الفاصل بين الجاهلية والاسلامية فيه، وقصة أربد أنه وفد على النبي مع عامر بن الطفيل قصد الغدربه، فعصمه الله منهما، ودعا عليهما، فأما عامر فمات بالطاعون وهو ما زال على مشارف المدينة، أما أربد فإن حياته لم تطل في بني قومه إذ أصابته صاعقة فقتلته . وطفق لبيد ينشد أربد عيون قصائده، ففي قصيدته العينية وهي أشمل ما في الديوان جمع فيها إلى الرثاء الحكمة والموعظة والتأمل والزهد، وقد بدأها بمطلع يؤمن بحتمية الموت :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالعُ
 وتبقى الجبالُ بعدنا والمصانع^(١)
 وقد كنتُ في أكناف دار مَضْنَةٍ
 ففارقني جارُ بأربد نَافِعُ^(٢)
 فلا جَزَعُ إن فرق الدهر بيننا
 وكل فتى يوماً به الدهر فاجِعُ
 وما الناس إلا كالديار وأهلها
 بها يوم خَلُوها وغدواً بِلَاقِعِ^(٣)
 وما المرءُ إلا كالشهاب وضوئه
 يحور رماداً بعد إذ هو ساطِعُ^(٤)
 وما المال والأهلون إلا وديعة
 ولا بد يوماً أن تُرَدَّ الودائع
 وما البر إلا مُضْمَرَاتُ من التقى
 وما المال إلا مُعْمَرَاتُ ودائع^(٥)
 فليبد مؤمن بحتمية الموت لا يجزع للفراق، إنه سنة

(١) المصانع: المباني تتخذ للماء. أو هي القصور.

(٢) أكناف: جوانب. جار مَضْنَةٍ: جار يرض به.

(٣) غدواً: غداً. بلاقع: قفار.

(٤) يحور: يصير. ساطع: مشتل. مضيء.

(٥) المعمر: الموضوع وديعة.

الكون وحكمة الله في مخلوقاته، وتتسارع كما رأينا في مطلع القصيدة معانيه الحكيمية لترينا شاعراً رزيناً عامراً بالإيمان في رهبة الموت، زاهداً بمتاع الدنيا مؤكداً على أن ثروة الإنسان تقاس بمقدار تقاه وعمله. إنها قيم إنسانية خالدة تبني الحياة والأخلاق.

ثم يتابع الشاعر فيميز بين نوعين من الناس، واحد يبني وآخر يهدم، واحد شقي وآخر سعيد، واحد قصير وآخر طويل، وهو يؤكد على أن الإنسان لا يدري ما تخبئه له الأيام، ومن هنا ينطلق ليشن ثورة شعواء على أحاديث العائفين والقائفين والضاربين بالحصى والمتحدثين بعلم الغيب، فأمر الغيب منوط برب العزة وحده تعالى عما يشركون:

وما الناسُ إلا عاملان فعاملُ
يُتَبَّرُ ما يبني وآخرُ رافعُ^(١)
فمنهم سعيدٌ أخذ لنصيبه
ومنهم شقيٌّ بالمعيشة قانعُ^(٢)

(١) يتبر: يخسر ويهلك. رافع: يقيم البناء ويرفعه.

(٢) تروى أخذ بنصيبه.

فلا تَبْعَدَنَّ إنَّ المنيَّة موعِدُ
عليك فدانٍ للطلوعِ وطالعُ^(١)
أتجزعُ مما أحدث الدهر بالفتى
وأَيُّ كريمٍ لم تُصِبْهُ القوارعُ^(٢)
لعمركُ ما تدري الضواربُ بالحصى
ولا زاجراتُ الطيرِ ما الله صانعُ
سلوهُنَّ إن كذبتُموني متى الفتى
يذوق المنايا أو متى الغيثُ واقعُ

وهكذا نرى كم في هذه القصيدة من حكمة وموعظة،
وجزالة ورصانة، وبساطة في اللغة والتركيب، وجمال في
اللفظ والمعنى، وهو أخيراً يحملك إلى أقرب المواضع
وأبعدها بسهولة ويسر.

وفي قصيدة أخرى من رثائياته يتحدث لبيد عن أخيه أريد
فقط دون الغوص في قضية الحياة والموت والإنسان
والوجود، فهي وجدانية خالصة، يندب في مطلعها أخاه
إشفاقاً عليه مما فعله ومما حلَّ به بعد محاولته الغدر بالرسول

(١) دان للطلوع: قريب الأجل.

(٢) القوارع: الدوامي، المصائب.

الأعظم ﷺ، وهو يخاطب (مي) ابنة أخيه طالباً منها أن تحيي
ذكره وتندبه فتى شهماً شجاعاً، عميداً في قومه:

يا مَيَّ قُومِي فِي الْمَآثِمِ وَانْدِي
فتى كان ممن يبتني المجد أرْوعاً^(١)
وقولي ألا لَا يُبْعِدُ اللَّهُ إِرْبَدًا
وهدي به صَدْعُ الفؤاد المُفْجَعاً^(٢)
عميدُ أناسٍ قد أتى الدهرُ دونه
وخطوا له يوماً من الأرض مضجعاً^(٣)
ثم يتحدث عن مشاعره الوجدانية نحو أخيه، وإفاضاته
الآخوية الحزينة:

لعمري أبيتُك الخير يا ابنة أربد
لقد شفني حزنٌ أصاب فأوجعا
فراقُ أخٍ كان الحبيبَ ففاتني
وولى به رَيْبُ المنون فأسرعا
فعينِي إذ أودى الفراقُ بأربد
فلا تجمداً أن تستهلا فتدمعا

(١) الأروع: الشهم الشجاع. ومية ابنة أربد.

(٢) الصدع: الشق.

(٣) عميد: رئيس.

فتى عارفٌ للحق لا يُنكر القِرَى
ترى رَفْدَهُ للضيف ملأَن مُتَرَعَاً^(١)
لحا الله هذا الدهرَ إني رأيتُهُ
بصيراً بما ساء ابن آدم مُولعاً

فيعلن الشاعر حزنه على أربد، إنها العاطفة الأخوية
المشبعة بروح الصدق، لذلك فهو لا يبخل عليه بالحزن
والدموع لأنه كان كريماً شجاعاً مضيافاً، ومثله خليق بالثناء
وبالبكاء. ويكشف في نهاية القصيدة عن برمه بهذا الدهر
المولع بالإساءة إلى الإنسان والنيل منه.

وبعد لعل ما في هاتين القصيدتين التاليتين ما يكفي لإلقاء
الضوء على شخصية أربد وخصائصها، ولا أغالي إذا قلت أن
أكثر من ربع ديوان لبيد كان في أخيه، وفي ذلك تأكيد على
العاطفة الإنسانية الأخوية التي تنضح بها نفس الشاعر.

ففي القصيدة الأولى يرثي لبيد أخاه ويذكر شمائله ومكارمه
وأخلاقه، فقد كان حامي الشرف مانع الضيم، المدافع عن
حياض القبيلة فارس الهيجاء يوم الفزع الشديد:

(١) الرفد: القدح العظيم.

ألا ذهب المحافظ والمحامي
 وَمَانِعُ ضَيْمِنَا يَوْمَ الْجُضَامِ^(١)
 وَأَيَقَنْتُ التَّفَرُّقَ يَوْمَ قَالُوا
 تَقْسَمُ مَالُ أَرْبَدَ بِالسَّهَامِ^(٢)
 وَأَرْبَدُ فَارِسُ الْهَيْجَا إِذَا مَا
 تَقَعَّرَتِ الْمَشَاجِرُ بِالْخِيَامِ^(٣)

ويتابع الشاعر فيتحدث عما كان عليه أربد من كرم وجود،
 فأبله تعود إلى الحي من المرعى لينال من خيرها الأيتام
 فيحمدونه ويذكرونه بالخير والفلاح، كما كان يهب جارته
 العطايا ويحرص على رعايتها عندما تدخل داره وهي تشي
 عليه الثناء الحسن، حتى لكان بيت أربد هو الحرم الذي
 يأمن به الناس ويطمثون:

إِذَا مَا تَعَزَّبُ الْأَنْعَامُ رَاحَتْ
 عَلَى الْأَيْتَامِ وَالْكُلِّ الْعِيَامِ^(٤)

(١) الضيم: الظلم.

(٢) السهام: النصيب. أيقنت: تأكدت علمت.

(٣) تقعرت: نقوضت. المشاجر: الخشب توضع عليه الأمتعة.

(٤) تعزب: تبعث في المرعى. الكل: العيال. العيام: جمع عيمان وهو
 الذي يشتهي اللبن.

فَيَحْمَدُ قَدَرَ أَرِيدَ مِنْ عَرَاهَا
 إِذَا مَا ذَمَّ أَرْبَابَ اللَّحَامِ^(١)
 وَجَارَتْهُ إِذَا خَلَّتْ إِلَيْهِ
 لَهَا نَفْلٌ وَحَظٌ فِي السَّنَامِ^(٢)
 فَإِنْ تَقَعْدُ فَمُكْرَمَةٌ حَصَانُ
 وَإِنْ تَظْعَنُ فَمُخْسِنَةُ الْكَلَامِ^(٣)
 نَوَاءلُ يَوْمٍ ذَلِكَ مِنْ أَتَاهِ
 كَمَا وَالِ الْمُجِلُّ إِلَى الْحَرَامِ^(٤)
 وَيودع لبيد في النهاية أخاه، أخاه الذي يعرف الناس
 أفضاله ومكارمه أيام الشدة في فصل الشتاء، عندما تيسر
 البقول وتجف الضروع، فقد كان إماماً ومرشداً لأهله
 وأصحابه، وبغيا به ضل الناس وأضحوا بعده أشباحاً لا
 ينفرون لغارة أو غزو:

فَوَدَّعَ بِالسَّلَامِ أَبَا حُرَيْرٍ
 وَقَلَّ وَذَاعَ أَرِيدَ بِالسَّلَامِ^(٥)

(١) عراها: أتاها طالباً خيرها.

(٢) النفل: العطية.

(٣) حصان: عفيفة، أبة. محسنة الكلام: تتلى على أريد ثناء حسناً.

(٤) وأل: نجا. المحل: الرجل المحل. الحرام: البيت الحرام.

(٥) أبو حريز تصغير لكنيته، فهو أبو حريز بفتح الحاء.

يُفْضِلُهُ شَتَاءَ النَّاسِ مَجْدُ
 إِذَا قَصَرَ السُّتُورُ عَلَى الْبِرَامِ^(١)
 وَكُنْتُ إِمَامَنَا وَلَنَا نِظَامًا
 وَكَانَ الْجَزْعُ يُحْفَظُ بِالنِّظَامِ^(٢)
 وَلَيْسَ النَّاسُ بَعْدَكَ فِي نَقِيرِ
 وَلَا هُمْ غَيْرُ أَصْدَاءِ وَمَامِ^(٣)
 وَإِنَّا قَدْ يُرَى مَا نَحْنُ فِيهِ
 وَنُسَحَّرُ بِالشَّرَابِ وَبِالطَّعَامِ^(٤)
 كَمَا سُجِرَتْ بِهِ إِرَامُ وَعَادُ
 فَأُضْحِكُوا مِثْلَ أَحْلَامِ النَّيَامِ

وفي القصيدة الثانية يرتجز لبيد معدداً مزايا أخيه أربد
 ومكارمه، فقد كان الكريم والرئيس واللطيف العطوف،

(١) يروى: يفضله سناء الناس مجداً. المجد: الشرف والذكر الطيب.
 قصرت الستور: نزلت وأسلمت. البرام: جمع برمة وهي أنية الطعام.
 ومعنى ذلك أنها لا تستعمل لقلة الألبان وبيس البقول في فصل الشتاء.

(٢) النظام: الخيط الذي ينظم فيه اللؤلؤ. الجزع: الخرز.

(٣) يروى: بعدك في نقير. النقير: النقرة خلف النواة والمعنى ليس الناس
 بعدك في شيء. أصداء: نوع من الطيور وكذلك الهام، ومعنى ذلك
 أنهم ليسوا سوى أشباح.

(٤) نسحر: نعلل، نبهت.

يعطي دون توقف ويهب طمعاً في الذكر الحسن والصيت
الطيب.

إنع الكريم للكريم أربدا
إنع الرئيس واللطيف كَبْدًا^(١)
يُحْذِي ويعطي ما له لِيُحْمَدًا^(٢)
أَدَمًا يُشَبِّهَن صُورًا أَبَدًا^(٣)
السابل الفضل إذا ما عُدَّدًا^(٤)
ويملاً الجفنة ملاً مددا^(٥)
رفهاً إذا يأتي ضريك ورَدًا^(٦)
مثل الذي في الغيل يقرؤ جُمْدًا^(٧)
يزداد تُرباً منهم أن يُوعَدًا^(٨)
أورثتنا ثراث غير أنكدنا
غنى ومالاً طارفاً وأتلدًا^(٩)

(١) اللطيف الكبد: المعطوف.

(٢) يحذي: يعطي.

(٣) الأدم: الإبل البيض. الصوار: قطع بقر الوحش. أبداً: مستوحشة.

(٤) السابل: الضافي الساغ.

(٥) المدد: المكث. الجفنة: الفصعة الكبيرة.

(٦) رفهاً: دائماً. الضريك: الفقير.

(٧) الذي في الغيل: كناية عن الأسد.

(٨) فهم: يعني الأعداء. يوعد: يوجه إليه التهديد.

(٩) الطارف: المال المحدث. الأتلد: المال الموروث.

شَرْخاً صُقُوراً، يافعاً وأمردا^(١).

ورثى لبيد غير أخيه أريد ممن تربطه بهم علاقات وطيدة،
وممن أثاروا في نفسه الإعجاب والاحترام، ومنهم عمه
مالك بن عامر ملاعب الأسنة والملقب بأبي براء، وقصيدته
فيه من أراجيز النوح، عامرة بالمعاني الصادقة والمشاعر
المرهفة، وكان عمه هذا قد خالفت بنو عامر أوامره عندما
شاخ، واتهمته بضياح العقل، فألمه ذلك، وما لبث أن شرب
الخمر ثم اتكأ على سيفه وقتل نفسه:

قُوماً تجُوبان مع الأنواح^(٢)
في ماتم مُهَجَّرُ الرُّواحِ^(٣)
يَخِمِشْنَ خُرْ أَوْجِهَ صِحَاحِ
في السُّلْبِ السود وفي الأَمْسَاحِ^(٤)
وَأَبْنَا مُلَاعِبَ الرِّمَاحِ
أَبَا بَرَاءٍ مَذْرَةَ الشُّيَاحِ^(٥)

(١) شَرْخاً: شاباً.

(٢) يروى: تنوحان وتجوBAN: فقدان القمص. والأنواح: جمع نوح (جماعة النائح).

(٣) مهجر: مبكر وتعني السير في الهجرة والرواح: العودة عند المساء.

(٤) السلب: الثياب السود. الأمساح: ثياب من شعر.

(٥) مدرة القوم: المدافع عنهم. الشياح: الجد والقتال والحذر.

يا عامراً، يا غابِر الصبّاح^(١)
ومِذْرَةَ الكُتَيْبَةِ الرِّدّاحِ^(٢).

فالشاعر يدعو إلى بكاء عمه مالك بن عامر وإقامة مآتم متواصلة إحياء لذكراه تحييها النائحات، فيخمشن أوجهن حزناً ويلبسن ثياباً سوداء حداداً.

وأبو براء هذا هو المدافع المخلص عن شرف قومه في القتال، والشجاع المشهود له في الغارات والحروب.

ثم يتابع الشاعر رثاءه لعمه، فقد كان غياث المستغيثين ومنجد الفقراء والمعدمين، والملاذ والمنقذ في زمن القحط والجفاف عندما تهب ريح الشمال التي تحمل البرد وتميت المواشي:

لَوْ أَنَّ حَيًّا مُدْرِكُ الْفَلّاحِ
أَدْرَكَهُ مَلَأَعِبَ الرِّمَاحِ
كَانَ غِيَاثَ الْمُرْمِلِ الْمُتَمَتِّحِ^(٣)
وَعِصْمَةً فِي الزَّمَنِ الْكَلّاحِ^(٤)

(١) يروى: يا عامر القداح. وعامر الصباح: المشهور بالغارة في الصباح.

وعامر القداح: أي الكريم الذي يلعب الميسر.

(٢) يروى وعامر الكتيبة. والرداح: الضخمة.

(٣) المرمّل: الفقير المعدم. المتمتّح: الذي يسأل رزقاً.

(٤) يروى في السنة. العصمة: الملجأ. الكلاح: السنة المجدة.

حين تهبُّ شمالُ الرِّيحِ^(١)

ويرثي في مقطوعة صغيرة عوف بن الأحوص الشجاع
رجل الفوارس والحروب، أعظم الناس بياناً وحلماً، إمام
قومه وبقية النفر الصالح والسلف الكريم:

قُومِي إذا نامَ الخَلِيُّ
فأُبْنِي عَوْفُ الفَوَاضِلِ^(٢)
عوف الفوارس والمجا
لس والصَّوَاهِلِ والذَوَابِلِ^(٣)
يا عوفُ أحلمْ كُلَّ ذِي
حلمٍ وأقولُ كُلَّ قَائِلٍ
يا عوفُ كُنْتَ إِمَامَنَا
وَبَقِيَّةَ النَفَرِ الأَوَائِلِ

أما رثاؤه للملك النعمان بن المنذر ٦٠٢ م فقد تميز
بنغمة دينية مستمدة من الإحساس بجبروت الموت وزوال
العظمة الإنسانية، لذلك حفلت قصيدته بمطلع حكيم غزير
المعاني، وكانت علاقة الشاعر بالنعمان قد بدأت عندما دخل

(١) خص الشمال لأنها عندهم تجيء بالبرد فتموت المواشي.

(٢) الخلي: الخالي من الهم، الذي لا يهـمه شيء من أمر الفقد.

(٣) المجالس: المحافل والمتديبات. الصواهل: الخيول. الذوابل: الرماح.

عليه مع وفد من بني قومه مدافعاً عنهم مهاجماً موقف خاله
الربيع بن زياد منهم إذ كان يصد الملك عن الاحتفاء بهم
ويكيد لهم .

وقد أبّن الشاعر الملك النعمان وتحدث عما كان يتمتع به
من خمور ولحم صيد ومن مآثر في فك الأسرى والكرم
والجود ومن نعمة عريضة سابغة هائلة وأسلحة ماضية :

لِيَبْكُ عَلَى النُّعْمَانِ شَرِبٌ وَقَيْنَةٌ
وَمُخْتَبِطَاتٌ كَالسُّعَالِي أَرَامِلُ^(١)
لَهُ الْمُلْكُ فِي ضَاحِي مَعْدٍ وَأَسْلَمْتُ
إِلَيْهِ الْعِبَادُ كُلُّهَا مَا يُحَاوِلُ^(٢)
إِذَا مَسَّ آسَارَ الطُّيُورِ صَفَّتْ لَهُ
مُشْعَشَعَةٌ مِمَّا تُغْتَقُ بِإِبِلٍ^(٣)
عَتِيقُ سُلَافَاتٍ سَبَتْهَا سَفِينَةٌ
تَكْرُ عَلَيْهَا بِالمَزَاجِ النِّيَاطِلُ^(٤)

(١) الشرب: الشاربون. المختبطات: اللواتي يسألن معروفًا. السعالي: جمع سعاله وهي الغول وقد شبه الأرامل بهن لتشتتهن. الأرامل: الجباة.

(٢) ضاحي معد: ظاهر معد. العباد: قبائل العباد بالحيرة.

(٣) آسار: جمع سؤرة وهي البقية من لحم الصيد هنا.

(٤) سى الخمر: حملها من بلد إلى بلد. النياطل: جمع ناطل وهو كوز نكال به الخمر.

بأشهب من أبكار مُزِنِ سَحَابَةٍ
 وَأَرِي دُبُورَ شَارَةِ النَحْلِ عَاسِلٌ^(١)
 تَكُرُّ عَلَيْهِ لَا يُصَرِّدُ شُرْبُهُ
 إِذَا مَا انْتَشَى لَمْ تَحْتَضِرْهُ الْعَوَازِلُ^(٢)
 عَلَى مَا تُرِيهِ الْخَمْرُ إِذْ جَاشَ بَخْرُهُ
 وَأَوْشَمَ جُودٌ مِنْ نَدَاهُ وَوَإِيسِلُ^(٣)
 فَيَوْمًا عَنَاءٌ فِي الْحَدِيدِ يَفْكُكُهُمْ
 وَيَوْمًا جِيَادٌ مُلَجَّمَاتٌ قَوَافِلُ^(٤)
 وَيَوْمًا مِنَ الدُّهْمِ الرُّغَابِ كَأَنَّهَا
 أَشَاءٌ دَنَا قِنُونُهُ أَوْ مَجَادِلُ^(٥)
 فَإِنْ أَمْرًا يَرْجُو الْفَلَاحَ وَقَدْ رَأَى
 سَوَامًا وَحَيًّا بِالْأَفَاقَةِ جَاهِلُ^(٦)

(١) الأشهب: الأبيض وعنى به الماء. الأري: العسل. الدبور: النحل.

شاره: جناه. العاسل: الذي يشتر العسل.

(٢) لا يصرد: لا يقطع. لم تحتضره: لم تكن حاضرة لديه.

(٣) جاش بخره: فاض، طما. أوشم: لمع.

(٤) العناة: الأسرى. قوافل: عائدة من الغزو.

(٥) الدهم: الإبل السود. الرغاب: الكثيرة. أشاء: صفار النحل مفردا

أشاءة. القنون: جمع قنوه وهو عذق النخلة. المجادل: جمع مجدل

وهو القصر.

(٦) الفلاح: الخلود والبقاء. السوام: الماشية. الحي: الناس.

فليك على النعمان الشاربون والجواري، والأرامل
البائسات المعدمات، فقد كان مفرج كرباتهم ومنقذهم من
وطأة الجوع والحرمان. وقد كان ملكاً مطاعاً شديد البأس
جواداً كريماً فارساً رؤوفاً بالأسرى شجاعاً، قضى أيامه في
الغزو والحروب وعاش في يسر ورفاهية وترف، ومن هنا
فليتعض المتعظون، فكل من رأى عظمة النعمان ثم موته ووطن
أنه سيخلد على وجه الأرض فهو جاهل غبي.

٣- فن الوصف، أو الرحلة في قصيدة لبيد:

كان لفن الوصف في داووين الشعر الجاهليين مساحة واسعة، فقد عاشوا في صميم البيئة الصحراوية وتأثروا بها، وجابوا مفازاتها وكثبانها، فانطلقوا يصفون ما فيها من رمال وطلح ونؤي وأطلال، وما يسرح في جنباتها من ظباء وبقر وحشي وأتان، وفرضت عليهم الحياة التنقل، والظعن من مكان لآخر فوصفوا مشاهد الرحيل وأحيا ساعاته الحاسمة، وتحدثوا عن معاناتهم وأشواقهم وحبهم وحببياتهم ناقلين لنا صورة رائعة جميلة مختزلين في أبيات تاريخهم وتراثهم وحضاراتهم.

ولبيد أحد هؤلاء الشعراء، فقد عكف على وصف مشاهد الرحيل ومناظر الحياة الصحراوية، وما يكتنفها من نبات وحيوان، فتحدث عن الأماكن الدارسة وما اعتراها من وحشة وكآبة، وما طرأ عليها من تحول وانقلاب، وأحيا ساعات الرحيل بما تشيره من حزن وشجون، ووصف النوق والظعائن وتنقل الرواحل في الصحراء عبر كثبان الرمل، وغابات النخيل، وما تشاهده في طريقها من ظباء وبقر وحشي وأتان وكلاب.

فالرحلة في قصيدة لبيد لوحة صحراوية جميلة وصف فيها
معالم الصحراء وكائناتها. وهذا ما نجده في كل قصائد
وصف الرحيل التي وردت في الديوان، كذلك نجد صورة
لبيد المحب، المحب العاقل الذي لا يتحدث عن حبه
وحده، وإنما مرتبطاً بموقف شامل من الحياة.

وما هو في هذه القصيدة يتغنى بمناظر الحياة الصحراوية
ويصف ساعة الرحيل:

راح القطينُ بهجرٍ بعدما ابتكروا
فما تَوَاصِلُهُ سَلْمِي وما تَذَرُ^(١)
كَأَن أَظْعَانَهُمْ فِي الصَّبْحِ غَادِيَةً
طَلَحُ السَّلَاتِلِ وَسَطَ الرُّوْضِ أَوْ عُشْرُ^(٢)
أَوْ بَارِدُ الصَّيْفِ مَسْجُورُ مَزَارِعِهِ
سُودُ الذَّوَائِبِ مِمَّا مَتَّعَتْ هَجْرَ^(٣)

(١) القطين: أهل الدار، الساكنين فيه. الهجر: الهجرة، أي نصف النهار.
(٢) الأظعان: النساء في الهودج. الطلح: نوع من الشجر. السلائل: اسم
موضع، مفردا سليل وقيل معناها الروض. العشر: نبت له ثمر بحجم
البطيخة الصغيرة.

(٣) بارد الصيف: يعني الماء البارد. مسجور: متلي. الذوائب:
الأغصان. تمت: ربت وسقت. بارد الصيف: نخل ناعم النبات في
الصيف.

جَعَلَ قِصَارَ وَعَيْدَانُ يَنْوُ بِهِ
 (١) مِنَ الْكُوفَرِ مَكْمُومٌ وَمُهْتَصِرٌ
 يَشْرِبْنَ رَفْهًا عَرَكَاءَ غَيْرِ صَادِرَةٍ
 فَكُلُّهَا كَارِعٌ فِي الْمَاءِ مَغْتَمِرٌ (٢)
 بَيْنَ الصُّفَا وَخَلِيجِ الْعَيْنِ سَاكِنَةٌ
 غُلْبٌ سَوَاجِدٌ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا الْحَصَرُ (٣)

فهذه صورة وصفية رائعة لمشاهد في الصحراء، تدل على استمتاع أصيل بالطبيعة، فالناس رحلوا في رابعة النهار، النساء في الهوداج لطلح السلائل وسط الرياض الغناء، أو كأنها نخل هجر الناعم المشبع بالخضرة الزاهية، يتبدى بين طويل وقصير وهو ينوء بثقل الطلح المتدلي والمكموم، تغمره المياه حتى عروقه باستمرار، وهو يتهادى بين العيون لا يضره برد الماء.

أرأيت هذه الصورة الوصفية لمشاهد المياه المتدفقة بين

(١) جعل: قصار النخل. العيدان: طوال النخل. ينوء به: يثقله. الكوفر: الطلع. المكموم: الذي لا يزال محجوباً في كمامته. المهتصر: المتدلي.

(٢) رفهاً: كلما أرادت. عراكاً: يردن جميعاً. مغتمر: مغمور العروق في الماء.

(٣) الصفا: منطقة في هجر. غلب: غلاظ الأعناق. الحصر: عدم نمو النبات جيداً.

النخيل في هجر، وهذا الربط الجمالي بين النساء في
الهودج وبين نخل هجر.

فليد يصف نفسه من خلال مشهد الرحيل، فهو عاشق
عاقل عشق الحياة بكل ما فيها من جمالات، وشقي لفراق
أحبابه الراحلين ولتنكرهم له، فاجتهد في ارتهان قلب
سلمى، ولكنه كان يخرج صفر اليدين، فهو يشكو من
تقلبها، فلا هي تصله ولا تذر، وهو بين اليأس والرجاء
يتألم، وذلك شأنه مع كل حبيبته، الصدود والإعراض.

ثم ينتقل الشاعر فيصف محبوبته سلمى وهي متحبة
ضخمة تكل وتضعف الأبصار، تنبعث من فمها في الليل
رائحة جميلة، لقد تعلق بها ولكنها الأنثى التي تنكر الشيب
والكبر، وتصل في غير حب ومودة خالصة، لا ترضى في
ذلك الحجة ولا تقبل السبب، وكأنه يصف لنا بذلك مطاردة
بينه وبين الدهر، فإذا أنس من حبيبته إصغاء مضى يجمل
نفسه في عينيها، وإن رأى صدوداً أخذ ينتقم من الدهر بالكرم
والشرب واعتساف القفار على ناقة لا تعرف الكلال:

وفي الحُدُوجِ عَرُوبٌ غَيْرُ فَاكِشَةٍ
رَيَّا الرَوَادِفِ يَعْشَى دُونَهَا الْبَصْرُ^(١)

(١) الحُدُوج: مراكب النساء. العروب: المتحبة لزوجها. رياء الروادف:
ضخمة المعجزة. يعشى: يكل ويضعف.

كَانَ فَمَاهَا إِذَا مَا اللَّيْلُ أَلْبَسَهَا
 سَيَابَةَ مَا بِهَا عَيْبٌ وَلَا أَثَرُ^(١)
 قَالَتْ غَدَاةٌ ائْتَجَيْنَا عِنْدَ جَارَتِهَا
 أَنْتَ الَّذِي كُنْتَ لَوْلَا الشَّيْبُ وَالْكِبَرُ^(٢)
 فَقُلْتَ لَيْسَ بِيَاضُ الرَّأْسِ مِنْ كِبَرٍ
 لَوْ تَعْلَمِينَ وَعِنْدَ الْعَالِمِ الْخَبَرُ^(٣)
 لَوْ كَانَ غَيْرِي سَلِيمِي الْيَوْمَ غَيْرَةً
 وَقَعَ الْحَوَادِثُ إِلَّا الصَّارِمُ الذَّكْرُ^(٤)
 مَا يَمْنَعُ اللَّيْلُ مَا هَمَمْتُ بِهِ
 وَلَا أَحَارُ إِذَا مَا اعْتَادَنِي السَّفَرُ^(٥)

وللشاعر قصيدة أخرى في الحديث عن الأطلال والرحيل
 يصف فيها معظم حيوانات الصحراء، ويبدو في مطلع
 القصيدة ظل سلمى لا يفارقه كما لم يفارقه في القصيدة
 السابقة، وهو يذكر الأماكن التي كانت تمرّ بها وتسكنها معرباً
 عن شعوره تجاهها وحبه الجارف لها، ثم يستعيد تلك

(١) ألبسها: شملها وغطاها.

(٢) ائتجينا: تناجينا.

(٣) الخبر: اليقين. تعلمين: تدرين.

(٤) المعنى: أنا لم أنغير، ولو أصابت الحوادث غيري لغيرته. الحوادث:

الشدائد. الصارم الذكر: السيف القاطع.

(٥) همت به: عزمت على إنفاذه. أحار: أتجير.

الصورة القديمة الجديدة، يوم ارتحل أهلها، فخلا الدار بعد
أن كان يموج بساكنيه وأصبح مسرحاً للنعام والجمال،
وأسراب البقر الوحشي تنفياً لظلال الأشجار:

ألم تُلِمَّ على السَّدَمَنِ الخَوَالِي
لِسَلَمَى بِالْمَذَانِبِ فَالْقُقَالِ^(١)

فَجَنَّبِي صَوَارٍ فَنِعَافٍ قَوْ
خَوَالِدَ مَا تَحَدَّثُ بِالزَّوَالِ^(٢)

تَحْمَلُ أَهْلَهَا إِلَّا عِرَاراً
وَعَزْفاً بَعْدَ أَحْيَاءِ جَلَالِ^(٣)

وَحَيْطاً مِنْ خَوَاصِبٍ مُؤَلَّفَاتٍ
كَأَنَّ رِثَالَهَا أَرْقُ الْإِفَالِ^(٤)

تَحْمَلُ أَهْلَهَا وَأَجْدُ فِيهَا
بِعَاجِ الصَّيْفِ أَخْبِيَةَ الظَّلَالِ^(٥)

-
- (١) تلمم: تفق. الدمن: آثار الديار. المذانب والقفال: أسماء مواضع.
(٢) صوار: اسم موضع. النعاف: رأس الوادي. قو: موضع.
(٣) تحمل: ارتحل. العرار: صوت ذكر النعام. العزف: انهيار الرمال وما
تحدثه من دوي. الحلال: المقيمون. حي حلال: كثير العدد.
(٤) الخيط: القطيع من النعام. خواصب: اصطفت أطرافها بماء
الأعشاب. مؤلفات: تعيش مع الألفاء. الرثال: صفار النعام. الإفال:
جمع أفيال وهو الفصيل، أي الحمل الصغير.
(٥) أجد: اتخذ منزلاً جديداً. العجاج: بقر الوحش. أخبية: جمع خباء وهو
البيت.

ثم ينعطف واصفاً ما ألم به من حزن وشوق عندما مرّ أمام
 أطلال ديار حبيبته، وكان يتمنى لو يلتقيها هناك، ولكن
 الأطلال الدارسة الجامدة لا يسكنها الأحياء، ويبدو ليبد كما
 يظهر في كل قصيدة من قصائده صاحب حظ سيء في علاقته
 مع من يحب، ويبدو أنه لم يكن صاحب حظوة عند النساء،
 وهذا ما جعله ينشد الجمال في مكانه الأرحب حيث الطبيعة
 الجذابة الساحرة ملك للجميع، لذلك فهو يهدد ويعلن أنه ذو
 بأس شديد لا يقيم في غير مودة ولا يرضى بجوار من قطع
 وصله، ويزمع الرحيل على ظهر ناقة سريعة العدو لا يصيها
 التعب، ضخمة قوية كثور الوحش النشط المتنقل باستمرار،
 وقد أضل قطيع البقر في ليلة ماطرة عاصفة هاجت فيها ريح
 الشمال، فبات الثور هائماً على وجهه يلوذ في عرض
 الصحراء بشجر الفرقد الندي المتكسر، وهو يقدم النذور
 ويرجو انكشاف الشدة وذهاب الغمة وملاقة إنائه، إذ تكاد
 الغيرة تقتله عليهن:

وقفتُ بهن حتى قال صحبي:
 جَزَعْتُ وليس ذلك بالسُّؤال^(١)

(١) النوال: الشأن، الهمة، أي ان جزعك لا يصلح لمثلك.

كَانَ دُمُوعَهُ غَرَبًا سُنَاةً
 يُجِيلُونَ السَّجَالَ عَلَى السَّجَالِ^(١)
 تَمَنَّى أَنْ تُلَاقِي آلَ سَلَمَى
 بِخَطْمَةٍ وَالْمَنَى طُرُقَ الضَّلَالِ^(٢)
 وَهَلْ يَشْتَاقُ مِثْلَكَ مِنْ دِيَارِ
 دَوَارِسَ بَيْنَ تُخَيْمٍ وَالْخِلَالِ^(٣)
 وَكَنتُ إِذَا الْهَمُومُ تَحَضَّرْتَنِي
 وَضَنْتُ خُلَّةً بَعْدَ الْوِصَالِ^(٤)
 صَرَمْتُ جِبَالَهَا وَصَدَدْتُ عَنْهَا
 بِنَاجِيَةٍ تَجَلُّ عَنِ الْكَلَالِ^(٥)
 عُذَافِرَةٌ تَقْمِصُ بِالرَّدَافِي
 تَخُونُهَا نُزُولِي وَارْتِحَالِي^(٦)

(١) الغرب: الدلو، السنة: السقا، السجال: جمع سجل وهو الدلو. يحيل: يصب.

(٢) خطمه: اسم مكان.

(٣) دوارس: قد عفت آثارها. تخيم والخلال: موضعان.

(٤) تحضرني: أتني، حضرت إلي، خلة: صاحبة.

(٥) صرمت: قطعت. جبالها: أسباب العلاقة بيني وبينها. الناجية: الناقة السريعة. تجل عن الكلال: هي أكبر من أن يصيبها التعب.

(٦) عذافرة: ضخمة قوية. تقمص: تثب. الردافي: خلف الراكب. تخونها: ذهب بلحمها وأهزلها.

كَأَخْسَرَ نَاشِطٍ جَادَتْ عَلَيْهِ
بُزْقَةٌ وَاحِفٌ إِحْدَى اللَّيَالِي^(١)
أَضَلَّ صَوَارَهُ وَتَضَيَّفَتْهُ
نَطُوفٌ أَمْرُهَا بِيَدِ الشُّمَالِ^(٢)
فَبَاتَ كَأَنَّهُ قَاضِي نُدُورٍ
يَلُودُ بِفَرْقِدٍ خَضِلٍ وَضَالِ^(٣)

ثم يتابع لبيد وصف هذا الثور الوحشي وما ألم به، إذ ظلَّ هائماً على وجهه حتى طلع الصباح فاعترضته كلاب الصيد مسترخية الأذنين، وهنا يصف المعركة التي جرت بين الفريقين وكان النصر فيها حليفاً للثور، فمضى تنكشف الغمرات عنه وتشق يده الخمائل:

فبَاكَرَهُ مَعَ الْإِشْرَاقِ غُضْفٌ
ضَوَارِيهَا تَخُبُّ مَعَ الرَّجَالِ^(٤)

(١) الأخسر: ثور الوحش، الناشط الكثير التقل. البرقة: الموضع يختلط تراه بالحصى. واحف: اسم موضع. جادت عليه: أي بالمطر.

(٢) الصوار: قطع البقر. النطوف: السحابة التي تقطر.

(٣) الفرقد: شجر. خضل: ندي. خضد: متكرر. الضال: نوع من الشجر.

(٤) الإشراق: طلوع الشمس. الغضف: جمع أغضف وهو الكلب المسترخي الأذنين. ضواريها: الكلاب التي ضريت على الصيد. تخب: تعدو.

فجال ولم يَجُلْ جُبْنًا ولكن
 تَغَرُّضُ ذِي الْحَفِيفَةِ لِلْقِتَالِ^(١)
 فغادر مُلَحَمًا وعدلن عنه
 وقد خَضِبَ الفرائص من طحال^(٢)
 وولى تَحَسَّرُ الْقَمَرَاتُ عَنْهُ
 بِكَمَا مَرُّ الْمُرَاهِنِ ذُو الْجَلالِ^(٣)
 وولى عَامِدًا لِطِيَاتِ فَلَجٍ
 يُرَاجِحُ بَيْنَ صَوْنٍ وَابْتِدَالِ^(٤)
 تَشْتَقُّ خَمَائِلُ الدُّهْنِ إِدَاهُ
 كَمَا لَعِبَ الْمُقَامِرُ بِالْفِيَالِ^(٥)
 وَأَصْبَحَ يَقْتَرِي الْحَوْمَانَ مَزْدًا
 كَنْصَلَ السِّيفِ حُدُوثَ بِالصِّقَالِ^(٦)

(١) جال: فرّ. الحفيظة: الغضب.

(٢) عدلن عنه: تركته. طحال: اسم كلب. الفرائص: جمع فريضة وهي ما حاذى المرفق من الجنب.

(٣) تحسر: تنكشف. القمرات: أهوال القتال. المراهن: فرس الرهان. ذو الجلال: المجلل صوناً له.

(٤) الطيات: جمع طية وهي الوجهة. فلج: اسم موضع. الصون: الكف من العدو. ابتدال: استخراج أقصى ما عنده من العدو.

(٥) الدهناء: اسم صحراء. الفيال: لعبة.

(٦) يقتري: يتبع. الحومان: أرض غليظة. حودث: جلي مرة بعد مرة.

وهكذا يتبين لنا مما ورد تداخل الصور الوصفية فهي جميعاً تصدر عن نفس ملأتها الغيرة وانتابها الخوف والحزن والحذر فلاذت بالخمرة وبالمقامرة، وبتعبير أوضح، لقد عَزَّ على لبيد أن يرى قومه يتعدى بعضهم على البعض الآخر، فخرج يدعوهم إلى الوثام، وهو يحلم أن يرى قوماً متآزرين أقوياء يرتدع فيهم الظالم عن غيه، ولكن لا بدَّ من زلزال يحقق هذا الحلم ويحرك النفوس والمشاعر، وقد وفر لبيد لحلمه هذا الزلزال فأنزل الوحوش من أعالي الجبال واقتلع الأشجار آملاً أن تخصب الأرض وتصفو الحياة وتبرأ النفوس من أمراضها الإنسانية وبذلك يكون لبيد قد اتخذ من القصص الوصفية وسيلة للتعبير عن معاناته الذاتية مع حبيته وعما يعانیه أبناء قومه أيضاً، فهو يريد الحياة نقية من كل ألوانها الباهتة، صافية جميلة:

أَصَاحَ تَرَى بِرِيقاً هَبْ وَهَنًا

كمصباح الشعيلة في الذُّبَالِ (١)

أَرِقْتُ لَهُ وَأَنْجَدَ بَعْدَ هَذِهِ

وأصحابي على شُعْبِ الرُّحَالِ (٢)

(١) هب: لمع. وهناً: بعد ساعة من الليل. الشعيلة: النار. الذُّبَال: الفتيلة.

(٢) أنجد: اتجه ناحية نجد. بعد هذه: بعد ساعة من الليل. شعب الرُّحَال: عيدان الرُّحَال.

فأفرغ في الرُّبَابِ يَقْوَدُ بُلْقاً
مُجَوِّفَةً تَذُبُّ عَنِ السُّخَالِ^(١)
وأصبح راسياً برُضَامٍ دَهْرٍ
وسال به الخمائل في الرمال^(٢)
وحط وحوشٌ صَاخَةً من ذُرَاهَا
كَأَن وُعُولَهَا رُمُكُ الْجِمَالِ^(٣)
فبات السيلُ يركبُ جانبيه
من البقارِ كالعميدِ الثَّقَالِ^(٤)
أقولُ وصوبُهُ مني بَعِيدُ
يَحُطُّ الشُّثُّ من قُللِ الْجِبَالِ^(٥)
سقى قومي بني مَجْدٍ وأسقى
نُمَيْراً والقبايلَ من هِلَالِ^(٦)

(١) أفرغ: أسال ما فيه من ماء. الرباب: أرض. البلق: السحاب. مجوفة:

غمر جنوبها وبطونها البياض. تذب عن السخال: تدافع عن أولادها.

(٢) راسياً: ثابتاً. الرضام: الحجارة. لين: اسم جبل.

(٣) صاخة: اسم جبل. رمك: سود والمفرد أرمك.

(٤) العميد: البعير الذي يشتكي سنامه. الثقال: البطيء الثقيل. البقار: اسم

جبل أو واد.

(٥) الشث: نوع من الشجر. القلل: جمع قلة وهي أعلى شيء.

(٦) مجد: من عشيرة لبيد (ابنة تميم بن غالب) وهي أم كلاب وكنية ابني

ربيعة بن عامر.

رَعْوَةٌ مَرَبَعًا وَتَصَيَّفُوهُ

بِلا وَبَا سَمِيٌّ وَلَا وَبَالٌ^(١)

لقد أفسد الظلم زاد قومه فأمسى خبيثاً تمجده النفوس، فراح يحلم بالبرق والرعد والمطر المخصب ليظهر النفوس وبيارك الأرض. وهكذا لم يكن الجانب الوصفي ورحلة القصيدة في شعر لبيد إلا ارتحالاً من الجذب إلى الخصب ومن الأطلال إلى الأبراج، ومن الخبث إلى الطهر والفضيلة ومن الخصام إلى الحب والوثام.

ويعرض علينا في ديوانه قصيدة طويلة قالها في وصف رحلة الأحباب ومناظر بقر الوحشي والحمر، إذ كان لبيد يحن إلى الطبيعة، فهو دائم التنقل في أرجائها، ينشدها غناءه العذب الصافي، فنحن في معرض الأطلال أمام إحساس عامر بالحياة لا يزول، إنه إحساس الشاعر الذي يرفض فكرة الفناء، فقد درست المنازل في المواطن التي يذكرها لبيد في قصيدته ولكن هذا الدروس سرعان ما ينتهي وتعود الحياة لتدب من جديد في معاقل الصحراء، فالشاعر لا يرضى للحياة في تلك المنازل أن تندثر، فيستعيدها بصورتين ضدَّ الفناء، إنهما صورة الكتابة المتجددة وصورة الوشم:

(١) مربعا: ربيعا. الوبا: المرض. سمي: سمية على الترخيم.

دَرَسَ الْمَنَا بِمُتَالِعِ فَأَبَانَ
 وَتَقَادَمَتْ بِالْحُبْسِ فَالسُّوْبَانِ^(١)
 فَنَعَافٍ صَارَةً فَالْقَنَانِ كَأَنَّهَا
 زُبُرٌ يُرْجَعُهَا وَلَيْدٌ يَمَانٍ^(٢)
 مُتَعَوِّدٌ لِحَنٍ يُعِيدُ بِكَفِّهِ
 قَلَمًا عَلَى عُسْبٍ ذُبُلُنَ وَبَنَانٍ^(٣)
 أَوْ مُسْلِمٌ عَمِلَتْ لَهُ عُلوِيَّةٌ
 رَضِنَتْ ظُهُورَ رَوَاجِبٍ وَبَنَانٍ^(٤)

أرأيت هذه الأماكن الدارسة كيف تبعثها من جديد كتابة
 غلام يماني ذكي على سعف النخيل وأشجار العرعر والبان،
 أو وشم امرأة على قصب الكف وبنانه وكأن آثار الدار زمام في
 خرزة.

وهكذا تبدو الأطلال تراثاً غالياً على النفوس، ولذلك

(١) المنا: منزل. متالع وأبان والحبس: جبال. السوبان: واد لبني تميم. تقادمت: قدمت.

(٢) النعاف: رؤوس الأودية. صارة والقنان: جبلان لبني فقمس. زبر: كتب. يرجعها: يرددها. وليد يمان: غلام يماني.

(٣) متعود: قد تعود ذلك. لحن: فهم فطن. العسب: سعف النخل. الذابل: اليابس وفيه ندوة. البان: نوع من الشجر واحدته بانه.

(٤) مسلم: ساعد أسلمه صاحبه ليدق عليه الوشم. علوية: امرأة. رصنت: وشتت. الرواجب: قصب الكف. البنان: مفاصل الكف العليا.

كانت رغبة لبيد في أن يحصنها من يد الشر والزوال، ويبعث الحياة في ديارها الصامته، فتظهر أشجار الأودية العظيمة وجماعات النعام وقطعان البقر الوحشي والظباء تروح وتغدو حانية على أولادها إنه الماضي يعود حياً بقيامة جيل جديد، ويورق ويخضر، وإذ ذاك يودع الشاعر الأطلال ويتقل على ظهر ناقة ضخمة كالعير في نشاطها وسرعة عدوها، فيدو فتى يعشق البكور ويسبق القطا إلى الماء، فتشرب سؤر ناقته، وهذه الناقة كالثور الوحشي أو كسفينة عظيمة، ثم يعرض الشاعر قصة الثور الوحشي وما يعترضه من مصاعب ومشقات في ليلة باردة كاد يموت فيها لو لم يتداركه إشراف النهار، وفي طريقه يلقي كلاب صيد، وتكتب له الغلبة بعد أن دافع باستماتة، وينجلي عنه الخوف وتسكبه خمرة الظفر بعد أن رأى الصرعى من الكلاب أمامه كظروف الدنان، ثم يمضي بعد ذلك وقد أشرف وجهه بالنصر، وهو يهتز في عدوه سليماً لم يصبه أذى.

لِلْحَنْظَلِيَةِ أَصْبَحَتْ آيَاتُهَا
يَبْرُقْنَ تَحْتَ كَنْهَبِلِ الْغُلَانِ^(١)

(١) الحنظلية: امرأة. آياتها: آيات المدار أي علاماتها. يبرقن: يلحن.
كنهبل: شجر. الغلان: أودية الشجر والمفرد غال.

خَلَدَتْ وَلَمْ يَخْلُدْ بِهَا مِنْ حَلِّهَا
 وَتَبَدَّلَتْ خَيْطاً مِنَ الْأَخْدَانِ^(١)
 وَالْخَاذِلَاتُ مَعَ الْجَاذِرِ خَلْفَةً
 وَالْأَذْمُ خَافِيَةٌ مَعَ الْفِرْلَانِ^(٢)
 فَصَدَدْتُ عَنْ أَطْلَالِهِنَّ بِجَسْرَةٍ
 غَيْرَانَةٍ كَالْعَقْرِ ذِي الْبُنْيَانِ^(٣)
 فَقَدَرْتُ لِلرُّودِ الْمُغْلَسِ غُدُوَّةً
 فَوَرَدْتُ قَبْلَ تَبْيِينِ الْأَلْوَانِ^(٤)
 سُدْماً قَدِيماً عَهْدُهُ بِأَنْيَمِهِ
 مِنْ بَيْنِ أَصْفَرِ نَاصِعٍ وَدِفَاقٍ^(٥)

-
- (١) خلدت: بقيت. الخيط: جماعة النعام. الأخدان: المتفرقة واحداً واحداً من نعام وغيره.
 (٢) الخاذلات: الظباء والبقر التي تخلفت لترعى أولادها. الجاذر: أولاد البقر والمفرد جَوْدَر. خلفه: مختلفة تذهب وتجيء. الأدم: الظباء البيض. حانية: عاطفة على أولادها.
 (٣) صدت عنها: تركتها وتحولت عنها. الجسرة: الناقة الضخمة. غيرانه: كالعير في نشاطها. العقر: القصر.
 (٤) يروى: فصدرت. قدرت: دنوت. المغلس: الذي دخل في الغلس قبل الصبح. تبين الألوان: وضوحها.
 (٥) السدم: الماء القديم الذي لم يستق منه. ناصع: خالص. دقان: مندفن.

فَهَرَقْتُ أَذْنِبَةً عَلَى مُتَثَلِّمٍ
خَلَقِي بِمُغْتَدِلٍ مِنَ الْأَصْفَانِ^(١)
فَتَغَمَّرْتُ نَفْسًا وَأَذْرَكَ شَأُوهَا
عُصَبَ الْقَطَا يَهُوِينَ لِلأَذْقَانِ^(٢)
كَسْفِينَةٍ الْهِنْدِيِّ طَابِقَ دَرَّهَا
بَسَقَائِفٍ مَشْبُوحَةٍ وَدِهَانِ^(٣)
فَكَأَنَّهَا هِيَ يَوْمَ غِبِّ كَلَالِهَا
أَوْ أَسْفَعُ الْخَدَيْنِ شَاةٌ إِرَانِ^(٤)
خَرَجُ إِلَى أَرْطَايَةِ وَتَغْيِبَتْ
عَنْهُ كَوَاكِبُ لَيْلَةٍ مَدْجَانِ^(٥)

(١) هرقت: صبيت. أذنبه: دلاء. مثلم: حوض مثلم الحوافي. خلق: دارس. الأصفان: السفر مفردا سفره.

(٢) تغمرت: شربت قليلاً. نفساً: شربة واحدة. شأوها: سيرها. سورها: ما فضل منها. يهوين: يقمن من التعب.

(٣) شبه الشاعر الناقه بالسفينة في طولها وعظمتها. طابق: أحكم عملها. الدره: العيب. السقائف: الخشب المشقوقة. مشبوحه: عريضة أو مشقوقة. دهان: دهن.

(٤) كلالها: إعيائها. الأسفع: ما فيه سواد ضارب إلى الحمرة. الشاة: الثور. الإران: النشاط.

(٥) خرج: مضطر إليها. الأرطاة: شجرة. ليلة مدجان: ملبة بالغيم أو دائم المطر.

فِتْدَارِكُ الْإِشْرَاقِ بَاقِي نَفْسِهِ
 مُتَجَرِّدًا كَالْمَائِحِ الْعُرْيَانِ^(١)
 لَوْ كَانَ يَزْجُرُهَا لَقَدْ سَنَحَتْ لَهُ
 طَيْرُ الشَّيَاحِ بِغَمْرَةٍ وَطَعَانِ^(٢)
 فَعَدَا عَلَى حَذَرٍ مُورَثٍ عُدَّةً
 يَهْتَزُّ فَوْقَ جَبِينِهِ رُمَحَانِ^(٣)
 حَتَّى أَشْبَّ لَهُ ضِرَاءٌ مُكَلَّبٌ
 يَسْعَى بِهِنَ أَقْبُ كَالسُّرْحَانِ^(٤)
 فَحَمَى مَقَاتِلَهُ وَذَادَ بَرُوقِهِ
 حَمَى الْمَحَارِبِ عَوْرَةَ الصُّحْبَانِ^(٥)
 حَتَّى انْجَلَتْ عَنْهُ عِمَايَةُ نَفْرِهِ
 فَكَانَ صَرَعاها ظُرُوفُ دِنَانِ^(٦)

(١) المعنى: لو طالعت عليه الشدة الليلة لمات. المائح: الذي يستقي الماء من البئر.

(٢) يزجرها: يزجر الطير. طير الشياح: القتال. الغمرة: الكرب والشدة.

(٣) عدا: جرى على حذر. العدة: قرنا الثور.

(٤) أشب له: رفع له وأتيح له. ضراء: كلاب. الأقب الضامر يعني الصائد. السرحان: الذئب.

(٥) مقاتله: مراق بطنه وخصره. ذاد: دافع. الروق: القرن. العورة: الثغرة المنكشفة.

(٦) انجلت: انكشفت. عماية نفره: ما ألبسه من الغزع. ظروف دنان: أوعية.

فاجتازَ مُنْقَطِعَ الكَثِيبِ كأنه
 نَضَعُ جَلْتَهُ الشَّمْسُ بعد صَوَانٍ^(١)
 يَمْتَلُ مَوْفُوراً ويمشي جانباً
 رَبْذاً يُسَلِّي حَاجَةَ الْخَشْيَانِ^(٢)

تلك صورة من صراع المخلوقات ضدَّ نكبات الدهر
 وشدائده، فالحياة لا تصفو وتنتعش وتتقدم إلا بالكناح في
 سبيل البقاء والوجود والحرية، وينقل الشاعر في نهاية
 قصيدته إلى قصة الصعل أو ذلك الظليم الذي يبدو كلفاً
 بأنثاه، يرعى وإياها أرضاً طيبة النبت، حتى إذا دبَّ الظلام
 ذكرا بيضهما فأسرعا إليه، إنه رمز الحياة القادمة الجديدة،
 رمز التجدد والانبعاث، تلك قصة الحياة، ومسيرة
 المخلوقات فيها:

أفذاك أم صَعْلُ كَانَ عِفَاءً
 أوزاع ألقاء على أغصَانِ^(٣)

-
- (١) النصح: ثوب خالص البياض. الصوان: التي تصان فيها الثياب.
 (٢) يمتل: يعدو أو يهتز في عدوه. موفوراً: سليماً معافى. ربذاً: سريعاً.
 يسلي: يطرح أو يسهل.
 (٣) الصعل: الظليم والصعل: الدقيق العنق والصغير الرأس. العفاء:
 الریش. أوزاع: قطع ألقاء: ما ألقي.

يُلْقِي سَقِيطَ عَفَائِهِ مُتَقَاصِرَا
 لَلشَّدِّ عَاقِدٍ مَنَكِبٍ وَجِرَانٍ^(١)
 صَغُلٌ كَسَافِلَةِ الْقَنَاءِ وَظِيفُهُ
 وَكَأَنَّ جُؤْجُوءَ صَفِيحٍ كِرَانٍ^(٢)

فهو هنا يتساءل عما إذا كان الثور - الذي تحدث عنه -
 يشبه ناقته أم يشبهها ظليم دقيق العنق صغير الرأس، طويل
 الساقين كأن صدره صدر عود.

ثم يتابع حديثه عن الظليم وأثناءه وعن الجو الهاديء الذي
 غشيها، فبدت حياتهما آمنة مستقرة يخيم عليها الحب
 والوفاق، ويرسم الشاعر هنا صورة رائعة وإنسانية لحياة تعمر
 بالمودّة، وتتجدد باستمرار، فيجعل بطلا قصته زوجين
 متحابين، ثم يشير إلى البيض، إنه البذور التي ستنمو وتبني
 الحياة من جديد، فيعقم الشاعر بذلك الحياة ضدّ مخاوف
 الفناء ويزودها بمعين لا ينضب، فحياة المخلوقات لا تتوقف،
 تتوارث الأجيال وتتعاقب إنها سنة المخلوقات.

(١) يروي: مقتصرأ. والسقيط: ما سقط من ريشه. متقاصراً: مجتمعاً.

عاقِد منكب: تقبض فعقد منكب. الجران: باطن الحلق.

(٢) الوظيف: عظم الساق يعني أنه طويل الساقين. الجؤجؤ: الصدر.

الكران: البربط وهو آلة موسيقية. الصفيح: الخشب المشقوق.

كَلِفَ بِعَارِيَةِ الْوُظَيْفِ شِمْلَةً
 يَمْشِي خِلَالَ الشَّرِيِّ فِي خِطَانٍ^(١)
 ظَلَّتْ تَتَّبَعُ مِنْ نِهَاءِ صَعَائِدٍ
 بَيْنَ السُّلَيْلِ وَمَدْفَعِ السُّلَانِ^(٢)
 سَبْدًا مِنَ التَّنُومِ يَخِيطُهُ النَّدَى
 وَنَوَادِرًا مِنْ حَنْظَلِ الْخُطْبَانِ^(٣)
 حَتَّى إِذَا أَفَدَ الْعَمَشِيُّ تَرَوْحًا
 لِمَبِيتِ رَبِيعِي النَّتَاجِ هَجَانٍ^(٤)
 طَالَتْ إِقَامَتُهُ وَغَيْرَ عَهْدِهِ
 رَهْمُ الرَّبِيعِ بِرُقَّةِ الْكَبْوَانِ^(٥)

(١) يروى: تمشي. عارية الوظيف: أنثى الظليم. شملة: سريعة. الشري: شجر الحنظل. خيطان: فرق النعام.

(٢) نهاء: جمع نهى وهو موضع مطمئن له ينتهي عنده السيل ويحفظ الماء. صعائد: موضع. السليل: واد. مدفع: مجرى.

(٣) سبداً: نابتاً. النوم: شجر. يخطه الندى: يصبه. النوادر: ما ندر فسقط. الخطبان: صفة الحنظل وخضرة فيه. والنوادي: أو ما يظهر منه.

(٤) أفد: قدم وعجل عليهما. تروحا: أي الظليم والنعامه بكرا عليه. هجان: أبيض. مبيت ربيعي النتاج: أي بيضهما الذي باضاه في أول الربيع.

(٥) الرهم: الأمطار الضعيفة. البرقة: رملة يخالطها حصباء. الكبوان: واد.

وهكذا يتصدى الشاعر في هذه القصيدة لمشكلة أساسية كانت تهم الإنسان الجاهلي وتقلقه، إنها مشكلة الفناء، فينهض بمهمة الفنان خير قيام، إذ يبعث الحياة ويخصبها، ويلقي على عاتق المكافحين والمناضلين مسؤولية استمرارها وتطورها.

٤ - الفخر :

كان الفخر ضرورة لا غنى عنها عند الجاهلي ، فقد حفل به الشعراء الجاهليون كافة وولعوا به لأهميته الكبرى في حياتهم اليومية ، فالنظام القبلي وحياة الحروب والغزوات والفروسية فرضت فنوناً معينة من الشعر وكان الفخر في مقدمتها ، فالقبيلة كانت بحاجة لمن يعلي شأنها ويبين شمائلها وقيمتها ، ويهجو أعداءها ، ولم يكن يستطيع أن يقوم بهذا الدور غير الشاعر ، لذلك لا يستغرب إذا قلنا أنه لم يخل ديوان جاهلي من قصائد الفخر والحماسة ، وكانت تلقى هذه القصائد أمام الناس ، ويبقى التفاخر سجلاً لسنوات في بعض الأحيان ، وكانت سوق عكاظ في الجاهلية من أكبر المواسم الشعرية التي عرفت لها شبه جزيرة العرب ، يلتحم فيها الشعراء في معركة شعرية ينقسم فيها الناس بين هذا وذاك .

ولبيد أحد هؤلاء الشعراء المقدمين في هذا الفن ، وقد عرضنا في صفحات سابقة شهادات كثيرة فيه ، تنعته بالكرم والجود والإباء والفروسية والشجاعة .

فقد كان فخوراً في الجاهلية ، ملحاً في الفخر يكاد يتورط في الغلو والإسراف ، على حدّ قول الدكتور طه حسين ، فقد

كان يفخر بنفسه مقبلاً على اللهو شارباً خمرة الصباح
والمساء، محتملاً كل الصعاب والشدائد، معتزلاً بكرمه
وفروسيته وشجاعته، ولم يكن لينسى عشيرته، فهو يفتخر بها
كثيراً، ويدافع عنها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولا يبيت
على ضيم يلحق بها، ولعل الفخر يكاد يأخذ نصيباً في كل
قصيدة قالها الشاعر، بل كاد أن يكون صناعة لبيد طوال حياته
الجاهلية. وقد قسمته إلى مرحلتين، الفخر في الجاهلية
والفخر في الإسلام.

الفخر في الجاهلية : - نشأت في نفس لبيد منذ شب ميول
حميدة، تغنى بها على امتداد حياته الطويلة، وعرف الناس له
هذه الخصال فاحترموه وأجلوه، حتى الولاة منهم، ألم يأخذ
على نفسه عهداً في الجاهلية أن يطعم الناس كافة كلما هبت
صبا، وقد وفى بنذره في الجاهلية وفي الإسلام، وقد أشار
إلى ذلك الوليد بن عقبة والي الكوفة في أبيات أرسلها إليه :

أرى الجزارَ يشحذُ شفرتيه

إذا هبت رياحُ أبي عقيلٍ

أشمُ الأنفِ أصيدَ عامرياً

طويلُ الباعِ كالسيفِ الصقيلِ

وفي ابنُ الجعفري بحلفتيه

على الملاتِ والمالِ القليلِ

ولبيد يفخر بذلك ويعتز.

وجزورٍ أيسارٍ دعوتُ لحتفها
بمغالقي متشابه أجسامها
أدعو بهن لعاقِرٍ أو مُطفِلٍ
بذلتُ لجيرانِ الجميع لحامها
فالضيفُ والجارُ الجنيبُ كأنما
هبطا تبالَةً مُخصباً أهضامها
تأوي إلى الأطنابِ كلُّ رزيةٍ
مثلِ البليةِ فالصُّ أهدامها
ويكللون إذا الرياحُ تناوحت
خُلجاً تمدُّ شوارعاً أيتامها

فهو هنا على عادته يقامر على نحر الإبل، بغية إطعام
الجائعين الملتجئين إليه، لا ينتظر بذلك ربحاً وكسباً،
والآتون إليه فيهم الضيف وفيهم الجار، وفيهم العاقر، وفيهم
المطفل كثيرة الأولاد وفيهم البائسات اللواتي يلزمن أطناب
الخيمة كأنهن النوق التي تشد إلى قبور الموتى، لا تبرحه
حتى تموت عليه، وكل هؤلاء ينعمون عنده بالخيرات والرغد
والاطمئنان، تقدم لهم الجفان وقد ملئت بالثريد، وكأنهم
نزلوا منطقة تباله وقد نبتت فيها الخيرات والأرزاق.

ويتحدث في قصيدة أخرى عن الموضوع الآنف الذكر
مفتخراً معتزاً بكرمه يوم آوى مستغيثاً لم ينجده أحد:

وَمُدْفَع طَرَقَ النُّبُوحُ فَلَمْ يَجِدْ
مَأْوَى وَلَمْ يَكْ لِلْمُضِيفِ سَوَامٌ^(١)
أَوَيْتُهُ حَتَّى تَكْفَتَ حَامِداً
وَأَهْلٌ بَعْدَ جُمَادِيْنَ حَرَامٌ^(٢)
وَضَباً غَدَاةَ إِقَامَةٍ وَزُعْتُهَا
بِحِفْآنٍ شِيْزَى فَوْقَهُنَّ سَنَامٌ^(٣)

ثم يتابع الشاعر مفتخراً بشجاعته وجراته في مواقف الشدة
والبأس، ومواجهته الحاسمة لذوي القدرة والبطش وتغلبه
عليهم في مجالات الفخر والاعتزاز، حتى كان سيد الموقف
والكلمة في مجلس عامر، وغايته من كل ذلك العلى
والأمجاد:

-
- (١) المدفع: الذي يدفعه كل أحد. والنبوح: الحي. السوام: الماشية.
(٢) تكفت: رجع وانقلب إلى أهله. جمادي الأولى والآخره: شهرا البرد
والرياح. حرام: شهر رجب وكانوا يعظمونه ولا يستحلون القتال فيه.
(٣) صبا: ريح الصبا، وكان ليبدد نذر ألا تهب الصبا إلا أطعم. شيزى:
خشب أسود تتخذ منه الحفان.

وَمَقَامَةٍ غَلَبَ الرِّقَابَ كَانَهُمْ
 جُنْ لَدَى طَرَفِ الْحَصِيرِ قِيَامٌ^(١)
 دَافَعْتُ خُطَّتَهَا وَكُنْتُ وَلِيَّهَا
 إِذْ عَنِي فَضْلُ جَوَابِهَا الْحَكَامِ^(٢)
 ضَارَسْتُهُمْ حَتَّى يَلِينَ شَرِيئُهُمْ
 عَنِّي وَعِنْدِي لِلْجُمُوحِ لِحَامٌ^(٣)
 وَيُكَلِّ ذَلِكُ قَدْ سَعَيْتُ إِلَى الْعَلَى
 وَالْمَرْءُ يُحَمَّدُ سَعْيَهُ وَيُلَامُ
 وَهَذَا هُوَ لِبَيْدٍ يَقِفُ مَوْقِفَ الْمَفَاخِرَةِ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ
 النِّعْمَانِ، وَيَتَحَدَّثُ عَنْ مَكَارِمِهِ وَنَجْدَتِهِ وَإِقْدَامِهِ، عِنْدَمَا أَطْعَمَ
 رِفَاقَهُ شَوَاءً طَرِيقاً لَمْ يَصْبِهِ دَخَانٌ ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِمْ بَزَقُ ثَمِينِ أَسْوَدِ
 اللَّوْنِ كَأَن جِلْدَهُ ظَهَرَ حَبَشِي:
 وَفَتِيَانِ صِدْقٍ قَدْ غَدَوْتُ عَلَيْهِمْ
 بَلَا دَخْنٍ وَلَا رَجِيْعٍ مُجَنَّبٍ^(٤)

(١) يروى: وقمام غلب الرقاب. مقامة: أهل مجلس. غلب الرقاب:

غلاظ الأعناق كالأسود. الحصار: الملك. القمام: العدد الكثير

(٢) يروى: إذ عني فصل خطابها. دافعت خطتها: رددت عليهم مفاخرهم.
 كنت وليها: صاحب الفوز فيها.

(٣) ضارستهم: جربتهم وعرفتهم. الشريس: أي العسر الخلق.

(٤) الدخن: الشواء الذي أصابه الدخان فهو متغير الطعم. الرجيع: بقية
 الشراب. المجنب: المنحى جانباً.

بِمَجْتَرَفٍ جَوْنٍ كَأَنَّ خَفَاءَ

قَرَأَ حَبِشِي فِي السَّرْوَمَطِ مُحَقَّبٍ^(١)

ثم يتحدث عن شجاعته وجراته في مساعدة التائهين
المأسورين، فكم من أسير فك قيده، وأخذ بيده في ظلمة
الليل مهتدياً بضياء النجوم كي يوصله إلى مقره الأمين، وهو
في المعارك صنديدها، يجيب دعوة الأبطال للنزال، وطعته
قاتلة، يرتفع لوقعها النواح:

وَعَانٍ فَكَكَتُ الْكَبْلَ عَنْهُ، وَسُدْفَةٍ

سَرِيَتْ وَأَصْحَابِي هَدَيْتُ بِكُوكَبٍ^(٢)

سَرِيَتْ بِهِمْ حَتَّى تَغَيَّبَ نَجْمُهُمْ

وَقَالَ النَّعُوسُ: نَوَّرَ الصُّبْحُ فَاهْزَبِ^(٣)

وَدَعَا مَرْهُوبٌ أَجَبْتُ وَطَعْنَةً

رَفَعْتُ بِهَا أَصْوَاتَ نُوحٍ مُسْلَبٍ^(٤)

ولبيد يحس بالآلام الآخرين، ومعاناتهم، لذلك يسارع

(١) المجترَف: الزق. جون: أسود. الخفاء: الجلد. قرا: ظر. السرومط:

قطعة جبل وقيل وعاء للزق يوضع فيه. محقب: مشدود خلف الدابة.

(٢) يروى: فككت الغل عنه. العاني: الأسير. الكبل: القيد. السدفة:
ظلمة الليل.

(٣) يروى: حتى تغور. سريت: سرت في الليل.

(٤) مرهوب: رجل مخوف الجانب. مسلَب: لبس السواد حداًداً.

لنجدتهم في أيام الشدة، فيقامر بالميسر كي يبعد عنهم البرد والجوع في آن معاً، في يوم قارس عاصف تقطعت منه أوتاد الخيم وحبالها، ولزمت النياق أماكنها، ويذبح لهم الإبل ويوزع لحومها عليهم فينالون الدفء والطمأنينة، فالشاعر لم يتخذ المقامرة للمقامرة، وإنما كانت ذات هدف اجتماعي إنساني:

ويوم هوائي أمره لشماليه
يُهتِكُ أخطالَ الطُرافِ المُطْنِبِ^(١)
يُنِيخُ المخاضَ البُرْكَ والشمسُ حَيَّةً
إذا ذُكِّيتَ نيرانُها لم تَلْهَبِ^(٢)
ذعرتُ قِلاصَ الثلجِ تحتِ ظلاله
بمثنى الأيادي والمنيحِ المُعْقَبِ^(٣)

وفي تعداد المفاخر يعجز خصومه عن اللحاق به، فهو سيد المجالس ويشهد على ذلك باب النعمان بن المنذر،

-
- (١) هوائي الأمر: أوائله. الشمال: الريح الشمالية. يهتك: يقطع.
أخطال: حبال. الطراف: البيت من آدم. المطنب: المشدود الحبال.
(٢) ينوخ: يضيئ. ينوخ الحوامل من النياق فتبرك لشدة البرد. الشمس حية: بيضاء لم تغب. ذكيت: أوقدت.
(٣) ذعر قلاص الثلج: أي دفع البرد عن الناس بإطعامهم. وقلاص الثلج: السحاب وقيل الإبل الفتية. مثنى الأيادي: ما فضل من لحم الجوزور. المنيح المعقب: القدح المشدود بالوتر.

فأمامه تصغر كل مفخرة، وإذا خط أحدهم في الرمل خطأ
ليدل على مفخرته، خط هو خطوطاً، ولذلك لم يحفل بتمدح
مبغضيه، لأنه أعلى منهم كعباً ومنزلة، فانهزموا أمامه في
مجلس المفاخرة هزيمة منكرة، وفروا لا يلوون على شيء
متفرقين تضطرب قسيهم كأنها قرون بقر تضرب برؤوسها من
شدة الإعياء.

وفي ختام القصيدة يفتخر الشاعر بأنه لكل صغيرة وكبيرة،
وينذر خصومه بأنه لهم بالمرصاد، وأنه مصمم على
مواجهتهم بالطريقة التي يريدون:

وخصم قيام بالعرء كأنهم
قُرُومٌ غِيَارِي كُلُّ أَزْهَرٍ مُصْعَبٍ^(١)
نَشِينُ صِحَاحِ الْبِيدِ كُلِّ عَشِيَّةٍ
يُغُوجِ السَّراءِ عِنْدَ بَابِ مُحَجَّبٍ^(٢)
شَهِدْتُ فَلَمْ تَنْجَحْ كَوَاذِبُ قَوْلِهِمْ
لَسَدِي وَلَمْ أَحْفَلْ ثَنَاكُلُ مَشْغَبٍ^(٣)

-
- (١) القروم: الفحول. أزهر: أبيض. مصعب: ممتنع لم يذلل.
(٢) صحاح البید: الصحاري المستوية الملبساء. نشينها: نخطها بالسهام
تعدداً لمفاخرنا. السراء: شجر ضخيم تتخذ منه القسي العربية.
المحجب: الملك.
(٣) ثنا كل: مشغب: تمدح كل مشغب. والمشغب هو الصبور على الشغب.

أَصْدَرْتُهُمْ شَتَّى كَانَ قِسْيُهُمْ
قُرُونُ صَوَارٍ سَاقِطٍ مُتَلَفٍ^(١)
فَإِنْ يُسْهَلُوا فَالسهل حظي وطُرقتي
وَإِنْ يُحْزِنُوا أَرْكَبْ بِهِمْ كُلَّ مَرْكَبٍ^(٢)

ولبيد لا يرى فرقاً بين فخره بنفسه وبين فخره بعشيرته
وبني قومه، إنهما متلازمان، التحما في إطار واحد لم ينقسم
أبداً. فقد دافع لبيد عن قومه بكل تغان وإخلاص، وناضل
في سبيلهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولعل هذا النضال بدأ
في مستهل حياته الشعرية، عندما صحب قومه وهو غر في
سفارة لهم عند النعمان بن المنذر، وكانوا يرون منه تلمظاً
وإقبالاً، إلا أنهم أحسوا هذه المرة بالصدود والإعراض،
وعلموا أن الربيع بن زياد خال لبيد هو مصدر وسبب هذا
الإعراض، وإذ ذاك أخذ لبيد على عاتقه مهمة تسوية الأمر
ومواجهته، عندما أصرَّ على زعماء قومه أن يصطحبوه معهم
إلى مجلس الملك، فوافقوا، ولما أذن لهم دخلوا، فوجدوا

(١) أصدرتهم: رددتهم. الصوار: قطع البقر. المتلف: الضعيف من الإعياء.

(٢) يسهلون: يذهبون في السهل أي يتسامحون. طرقتي: مذهبي وطريقتي. يحزنون: يركبون الأرض الوعرة.

الملك على طعامه ومعه الربيع بن زياد الذي أخذ ينتقص
 منهم ويصرف الملك عنهم فوثب ليبد مرتجلاً:
 لا تزجر الفتیان عن سوء الرُّعَا (١)
 يا رَبُّ هيجاً هي خَيْرٌ من دَعَا (٢)
 يا بن الملوك السادة الهَبْنَقَا (٣)
 أنا لبيدٌ ثم هذي المنزَعَا (٤)
 في كل يومٍ هامتي مَقْرَعَا (٥)
 قانعةٌ ولم تكن مُقْنَعَا (٦)
 نحنُ بنو أمِّ البَينِ الأربعة
 ونحنُ خيرُ عامرٍ بنِ صعصعة
 المطعمون الجفنة المدْعَدَا (٧)
 والضاربون الهامَ تحت الخِيضَعَا (٨)

(١) الرعة: الحق.

(٢) الهيجا: الحرب. اندعة: الراحة وخفض العيش.

(٣) الهبنقة: أهل الزهو والكبرياء.

(٤) المنزعة: القوس.

(٥) مقرعة: متساقط شعرها. كناية عن أنه يقاتل ويقاتل كل يوم.

(٦) مقنعة: مغطاة بقناع.

(٧) الجفنة: القصعة الكبيرة. المدعدة: المملوءة.

(٨) الهام: الرؤوس. الخيضة: اختلاط الأصوات والغبار والبيضة التي تلبس على الرؤوس.

ولما سمع النعمان آخر الرجز (وهو ليس في هذه
الآيات) تألم وتوقف عن الطعام وأمر بإكرام بني جعفر
وقضاء حوائجهم، وما في القصيدة يدل على شجاعة منقطعة
النظير حفلت بها نفس الشاعر الأدبية، فهو هنا يخاطب
النعمان بن المنذر مفتخراً بفروسيته، إذ أنه دوماً في ساحة
القتال مكشوقاً دون قناع، وهذا منتهى الشجاعة، ثم ينتقل
إلى الحديث عن بني قومه، الكرام الأبطال، والأجواد
الشجعان، المطعمين القصاع الكبيرة، والمفلقين الهامات.

وفي قصيدة أخرى يفتخر ليبد بقومه ويعشيرته ويتحدى
خصميه عقبة بن عتبة ومالك بن جعفر، وهو يدحض مزاعمها
ويفتخر بأعمامه وأخواله وجدوده ذوي العزم والحزم والجود،
فخاله مالك بن جعفر ولي قرى الريف وأعطاه ملك اليمن
فوق ما تعطى الوفود لعلو كعبه وشأنه، وأبوه ربيع اليتامى
والمقترين كما كان يعرفه كل الناس، ثم يجملهم في بيت
واحد، إنهم لا يبارون وليس لهم مثل:

ولستُ كما يقول أبو حَفِيدٍ
ولا نَدْمَانُهُ الرَّخْوُ البَلِيدُ^(١)

(١) أبو حفيد: عقبة بن عتبة. الندمان: النديم أي الرفيق على الشراب.
الرخو: الضعيف.

فعميَّ ابنُ الحَيَا وأبو شَرِيح
 وعمي خالِدُ حَزْمٌ وجُودُ^(١)
 وجدي فارسُ الرَعشَاءِ منهم
 رئيسُ لا أَسْرُ ولا سَنِيدُ^(٢)
 وشارَفَ في قُرى الأريافِ خالي
 وأُعْطِيَ فوقَ ما يُعْطَى الوُفُودُ^(٣)
 وجدتُ أبي ربيعاً لليتامي
 وللأضيافِ إذ حُبَّ الفَيْدُ^(٤)
 وخالي خَدِيمٌ وأبو زهير
 وزَنْبَاعٌ ومولاهم أَسِيدُ^(٥)
 أولئك أسرتي فاجمع إليهم
 فما في شُعْبَتِكَ لهم نَدِيدُ^(٦)

(١) ابن الحيا: عتبة بن جعفر. والحيا: أمه. أبو شريح: الأحوص بن جعفر.

(٢) الرعشاء: فرس. الأسر: عيب يصيب كركره البعير. السنيد: المدخل في القدم وليس منهم.

(٣) شارف: ونى المشارف. الأرياف: العراق وما يليه من بلاد المعجم.

(٤) الفئيد: خبز الملة، أو الشواء وقبل النار يحييها الناس في الشتاء دفعا للبرد.

(٥) هؤلاء الذين عدهم في البيت من بني عبس.

(٦) الشعبتان: القبيلتان، نديد: مثل. والزنمتان: الدعوتان.

وفي قصيدة لامية يصدق ليبد على أفنانه طويلاً، متحدثاً
عن مآثره الجمة وخصاله الحميدة وأفضاله التي لا تنكر:

فلقد أَعْرَضُ بِالْخَصْمِ وقد
أَمَلُ الْجَفَنَةَ مِنْ شَحْمِ الْقُلُلِ^(١)

ولقد تَحَمَّدُ لِمَا فَارَقْتُ
جَارَتِي وَالْحَمْدُ مِنْ خَيْرِ خَوْلِ^(٢)

وَعُلامٍ أَرْسَلْتُهُ أُمُهُ
بِأَلْوَكٍ فَبَذَلْنَا مَا سَأَلَ^(٣)

أَوْ نَهْتُهُ فَأَتَاهُ رِزْقُهُ
فَاشْتَوَى لَيْلَةَ رِيحٍ وَاجْتَمَلَ^(٤)

مِنْ شِوَاءٍ لَيْسَ مِنْ عَارِضَةٍ
بِيَدَيَّ كُلِّ هَضُومٍ ذِي نَزَلِ^(٥)

(١) أعرض به: أركب به الأمر المويص. الجفنة: القصعة. القلل: الاسنة.

(٢) الخول: العطية.

(٣) الألوك: الرسالة.

(٤) اجتمَلَ: انتفع بالشحم.

(٥) العارضة: الناقة التي أصابها كسر أو عرض فنحرت. الهضوم: الفنى الذي يهضم ماله ويتذله في صنوف المعروف. النزَل: المعروف والخير.

فليبد يعجز خصمه، وهو رجل الكرم والجود، قصاعه دائماً ملأى، وجارته تحمد ذكره لسخائه، وهو لا يرد سائلاً أبداً، حتى إذا نهت الأم غلامها عن الطلب حياءً، بعث هو إليها بما اشتواه وهذا منتهى الكرم وغاية الجود.

ثم يستأنف الشاعر متحدثاً عن شجاعته وفروسيته ونجدته:

ولقد يعلمُ كُلُّهُمْ
بِعَدَانِ السَّيْفِ صَبْرِي وَنَقْلِ^(١)
رَابِطِ الْجَأْشِ عَلَى فَرْجِهِمْ
أَغْطَفُ الْجَوْنَ بِمَرْبُوعٍ مِثْلِ^(٢)
وَلَقَدْ أَغْدُو وَمَا يَغْدُ مُبْنِي
صَاحِبِ غَيْرِ طَوِيلِ الْمُحْتَبِلِ^(٣)

(١) عدان بفتح العين ضفة النهر وبالكسر: موضع على سيف البحر. النقل: مراجعة الكلام في صخب.

(٢) رابط الجأش: ثابت القلب. الفرج: موضع المخافة. الجون؛ فرسه. المربوع: الرمح ليس بالطويل ولا بالقصير. المتل: الشديد.

(٣) الصاحب هنا الفرس. المحتبل: موضع الحبل من رسغه والمحمود في الخيل قصر الرسغ.

سَاهِمُ الْوَجْهِ شَدِيدُ أَسْرُهُ
 مُغْبِطُ الْحَارِكِ مَحْبُوكُ الْكَفْلِ^(١)
 بِأَجْسُرِ الصَّوْتِ يَنْغَبُوبُ إِذَا
 طَرَقَ الْحَيِّ مِنَ الْغَزْوِ صَهْلُ^(٢)
 فَهُوَ شَحَاجٌ مُدِلٌّ سَنَقُ
 لِأَحَقِّ الْبَطْنِ إِذَا يَعْدُو زَمَلُ^(٣)
 فَتَدَلَيْتُ عَلَيْهِ قَافِلًا
 وَعَلَى الْأَرْضِ غَيَابَاتُ الطُّفْلِ^(٤)
 وَتَأَيَّنْتُ عَلَيْهِ ثَانِيًا
 يَتَّقِينِي بِتَلِيلِ ذِي خُصَلِ^(٥)

فصحة كلهم يعرفون مدى شجاعته، فهو فارس رابط
 الجأش لا يخاف الصعاب، وهنا ينتقل إلى وصف الفرس

-
- (١) ساهم الوجه: محمول على كربة الجري. شديد الأسر: موثق الخلق.
 مغبط الحارك: حاركه كالغيط والحارك الكاهل. والغيط: قتب
 اليهودج. محبوك الكفل: مدمج فيه استواء مع ارتفاع.
 (٢) اليعبوب: الفرس الطويل السريع.
 (٣) شحاج: كثير التصويت. مدل: جريء. سنق: يشم لكثرة ما أكل.
 لاحق البطن: ضامر. زمل: اعتمد في عدوه على أحد شقيه رافعاً جنبه
 الآخر.
 (٤) الغيابة: الظل. الطفل: حين تهم الشمس بعد الغروب.
 (٥) التليل: العنق.

التي يمتطيها في المعارك، إنها طويلة سريعة كثيرة الجري، جريئة ضامرة، ويتنقل الشاعر من هذا الوصف إلى الحديث عن بطولته المشهودة، فقد كان إلى جواره حامية من آل جعفر تختبر أغماد السيوف، أفرادها كلُّيوث أشداء هزموا خصومهم في المعارك وتكلوا بهم وقتلوا أشرافهم:

ومعي حامية من جعفر
كُلُّ يَوْمٍ تَبْتَلِي مَا فِي الْخِلِّ (١)
وَقَبِيلٌ مِنْ عُقَيْلٍ صَادِقُ
كَلْيُوثٍ بَيْنَ غَابٍ وَعَصَلٍ (٢)
فَصَلَقْنَا مُرَادٍ صَلَقَةً
وَصُدَاءِ الْحَقْنُهِمِ بِالثَّلْثِ (٣)
لَيْلَةَ الْغُرُقُوبِ لَمَّا غَامَرَتْ
جَعْفَرُ تَدْعَى وَرَهْطُ ابْنِ شَكْلٍ (٤)

ثم لا يلبث أن يتحدث من جديد عن نفسه، فهو سيد قومه والمدافع عنهم والمنافع عن قضاياهم ووجودهم، فكم من

(١) تبتي: تختبر. الخلل: أغماد السيوف.

(٢) العصل: جمع عصلة وهي تشبه الدفلى. الغاب: أجمة القصب.

(٣) صلقتنا: صحننا. الثلث: الهلاك.

(٤) غامرت: دخلت غمرة القتال.

أزمة أنقذ منها قبيلته، ويشهد بلاط النعمان بن المنذر على طول باعه ولسانه الذرب وحجته القاطعة ودفاعه عن بني قومه عامر عندما دعوه لنصرتهم، إذ هب كالليث الهصور يرد كيد الخصوم ويتنصر عليهم:

ومقام ضيقي مزجتُ
بمقامي ولساني وجدلُ
ولدى النعمان مني موطنُ
بين فائور أفاقٍ فالدحل^(١)
إذ دعيتني عامرُ أنصُرُها
فالتقى الألسنُ كالنبُلِ الدؤل^(٢)
فرميتُ القومَ رشقاً صائباً
ليس بالمُضِلِّ ولا بالمُقتعل^(٣)
رقمياتٍ عليها ناهضُ
تُكَلِّحُ الأزواقَ منهم والأبل^(٤)

(١) فائور وأفاق والدحل: مواضع.

(٢) الدؤل: المتداولة.

(٣) الرشق: سهام كثيرة دفعة واحدة. العصل: المعوجة. المقتعل: الذي لم يبر برياً جيداً.

(٤) رقميات: نبل منسوبة إلى الرقم وهو موضع دون المدينة. ناهض: ريش فرخ نسر. الأزواق: الطويل الأسنان. الأبل: الذي لزقت أسنانه باللثة.

فَانْتَضَلْنَا وَابْنُ سَلْمَى قَاعِدٌ
كَعَتِيقِ الطَّيْرِ يُغْضِي وَيُجَلُّ^(١)

ويعتزل لبيد في قصيدة أخرى بقومه بني عامر، فهم أشرف
من خير الأقسام، أسخياء، لهم مجلس عامر يوسعون فيه على
الناس، وقدور وجفان تشهد على علو باعهم في الجود
والكرم، وسخاؤهم يفيض خاصة عندما يشتد البرد، وتمتلىء
أجواء نجد بقطع السحاب فيطوفون على الناس بالطعام
ليمنعوا عنهم الجوع، ومعظم قبائل العرب تعرف فضل
هؤلاء، وبلاءهم، ونعمهم:

بَنُو عَامِرٍ مِنْ خَيْرِ حَيٍّ عَلِمَتْهُمْ
وَلَوْ نَطَقَ الْأَعْدَاءُ زُورًا وَيَاطِلَا
لَهُمْ مَجْلِسٌ لَا يَحْصِرُونَ عَنِ النَّدَى
وَلَا يَزْدَهِيهِمْ جَهْلٌ مَنْ كَانَ جَاهِلًا^(٢)
وَيَبِضُّ عَلَى النِّيرَانِ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ
سَرَاةَ الْعِشَاءِ يَزْجُرُونَ الْمَسَابِلَا^(٣)

(١) انتضلنا: تبارينا. ابن سلمى. عتيق الطير: البازي. يجل: أصله يجلي
أي ينظر.

(٢) يحصرون: تضيق صدورهم به. يزدهيهم: يستخفهم.

(٣) يبض: رجال يوقدون ويطعمون. أو كناية عن نقاء أجسامهم. سراة
العشاء: وقت طروق الضيف. المسابل: جمع مسبل وهو قدح له ستة
أنصباء.

وَأَعْطَوْا حَقُّوْقًا ضَمْنُوْهَا وَرَآئَةً
عِظَامَ الْجِفَانِ وَالصَّيَامِ الْحَوَافِلَا^(١)
تُوَزَّعُ صُرَادُ جِفَانِهِمْ
إِذَا أَصْبَحَتْ نَجْدٌ تَسْقُ الْأَفَائِلَا^(٢)

وقوم لبيد سراة أعلام، يؤمون الفضائل والمعالي ويتسمون
ذراها، وهم شجعان أشداء في الحروب، رحماء بالأسرى،
فكم من أسير أطلقوا سراحاً فانطلق مغتبطاً هائثاً، وكم من
جيش فلوله، حتى أنهم تعرضوا لسراة القوم، وهم يحفظون
حق الجوار وينغصون على خصومهم الذين حاولوا هدم
تاريخهم ولكنهم بالمرصاد، فقد أذلّوهم وانتصروا عليهم
بأسياف علت المناقل:

أُولَئِكَ قَوْمِي إِنْ تُلَاقِ سَرَائِهِمْ
تَجِدُهُمْ يَوْمُونَ الْعُلَا وَالْفَوَاضِلَا^(٣)
وَلَنْ يَعْذَمُوا فِي الْحَرْبِ لَيْثاً مُجَرَّباً
وَإِذَا نَزَلَ عِنْدَ الرِّزْيَةِ بَإِذْلَا^(٤)

(١) الصيام الحوافل: القدور الممتلئة.

(٢) صراد: سحاب بارد لا ماء فيه. الأفائل: الفضلان.

(٣) سرائهم: كبارهم، زعماءهم.

(٤) ذو نزل: رجل كثير الفضل والمطاء والبركة.

وَعَانِ فَكُكِنَاهُ بِغَيْرِ سِوَامِهِ
فَأَصْبَحَ يَمْشِي فِي الْمَحَلَّةِ جَاذِلًا^(١)
لَهُمْ فَخْمَةٌ فِيهَا الْحَدِيدُ كَثِيفَةٌ
تَرَى الْبَيْضَ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالْمَعَابِلَ^(٢)
ضَرَبْنَا سُرَاةَ الْقَوْمِ حَتَّى تَوَجَّهُوا
سِرَاعًا وَقَدْ بَلَ النَّجِيعُ الْمَحَامِلَ^(٣)
نُؤَدِي الْعَظِيمَ لِلْجَوَارِ وَنَبْتَنِي
فَعَلًّا وَقَدْ تُنْكِي الْعَدُو الْمَسَاجِلَ^(٤)
لَنَا سُنَّةٌ عَادِيَّةٌ نَقْتَدِي بِهَا
وَسُنَّتْ لِأُخْرَانَا وَفَاءً وَنَائِلًا^(٥)
يُذْذِبُ أَقْوَامًا يَرِيدُونَ هَدْمَهَا
نِيَافٌ يَبْذُ الْوَاسِعَ الْمَتَاطُولَ^(٦)

-
- (١) العاني: الأسير. السوام: المساومة. جاذل: فرح.
(٢) فخمة: كتية ضخمة. المعابيل: جمع معبلة وهي النصل الطويل العريض.
(٣) المحامل: حمائل اليف.
(٤) المساجل: المبارز، المعارض. تنكي: تغيظ.
(٥) عادية: قديمة.
(٦) يذذب: يحدث اضطراباً. نياف: العالي المرتفع. يبذ: يفوت. الواسع المتطاول: ذو الذراع العريض.

صَبَرْنَا لَهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ عَظِيمَةً
 بِأَسْيَافِنَا حَتَّى غَلَوْنَا الْمَنَاقِلَ^(١)
 وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهُمْ لَدَى كُلِّ غَارَةٍ
 فَقَدْ يَتَّبِعُ بِالْأَخْبَارِ مَنْ كَانَ سَائِلًا
 أَوْلَيْكَ قَوْمِي إِنْ سَأَلْتَ بِخِيَمِهِمْ
 وَقَدْ يُخْبِرُ الْأَنْبَاءَ مَنْ كَانَ جَاهِلًا^(٢)
 هَذَا هُوَ فَخْرٌ لِيَدٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَيَسْتَفِرَّقُ قِسْمًا كَبِيرًا مِنْ
 الدِّيَّانِ.

أما فخره في الإسلام فقليل جداً. فقد أنعم الله عليه بنعمة القرآن، ومحي ما كان في نفسه من بقايا الجاهلية، ومعظم الأخبار تصوره بعد إسلامه رجلاً كريم النفس، صافي الطبع، حلو الشمائل معتدل المزاج، لم يستبق من أمور الجاهلية إلا ما يتلاءم مع قيم الإسلام وتعاليمه السمحاء، لذلك فإنه انصرف عن الفخر في حياته الإسلامية، وكان إذا سمع من يعيب قومه رده حازماً ثم استغفر الله من الفخر، مما يدل على أن الإسلام كان عميقاً في نفسه، إذ أنه نهى عن التنازع والتفاخر بالأنساب والأحساب.

(١) المناقل: الشاي.

(٢) الخيم: الخلق والشيمة.

المعلقة

يقال أن لبيد أنشد النابغة معلقته هذه، فقال له: اذهب
فأنت أشعر العرب.

عَفَتَ الدِّيَارُ محلُّها فمُقَامُها
بِمَنْى تَأْبُدُ غَوْلُهَا فرجاءُها^(١)
فمَدَافِعُ الرِّيَّانِ عُرِّيَ رَسْمُها
خَلَقًا كما ضَمِنَ الوُحْيُ مِلاَمُها^(٢)
دِمْنٌ تجرَّمُ بعد عهد أنيسِها
جَجَجَ خَلَوْنَ خَلَالُها وحرامُها^(٣)
رُزِقَتْ مَرَابِيعُ النُّجُومِ، وَصَابَها
وَذُقَ الرُّوَاعِدُ جَسَدُها فَرِهاَمُها^(٤)

(١) عفت: انمحت. المحل من الديار: ما حل فيه لأيام معدودة. المقام منها: ما طالت الإقامة فيه. منى: موضع. تأبد: توحش. غولها ورجامها: جبلان معروفان.

(٢) مدافع: مسايل الماء. الريان: جبل معروف. الوحي: الكتابة. السلام: الحجارة. الواحدة: سلمة بكسر اللام.

(٣) الدمن: الآثار. تجرَّم: انقطع أو تكمل. العهد: اللقاء. ججج خلون: سنون مضين. حلالها وحرامها: هي الأشهر الحرم وأشهر الحل.

(٤) مزابيع النجوم: أنواء الربيع، وهي المنازل التي تحلها الشمس فصل الربيع. الصوب: الإصابة. وصابها: أصابها. الودق: المطر. الجود: المطر التام العام. والرواعد: ذوات الرعد من السحاب. والرهام: المطر الخفيف اللين.

مِنْ كُلِّ سَارِيَةٍ وَغَادٍ مُذْجِنٍ
 وَعَشِيَّةٍ مُتْجَاوِبٍ إِرْزَامِهَا^(١)
 فَعَمَلَا فِرْعَوْنَ الْإِبْهَقَانِ وَأَطْفَلَتْ
 بِالْجَهْلَتَيْنِ ظَبَاؤُهَا وَنَعَامِهَا^(٢)
 وَالْعَيْنُ عَاكِفَةٌ عَلَى أَطْلَالِهَا
 عُودًا تَأْجُلُ بِالْفَضَاءِ بِهَامِهَا^(٣)
 وَجَلَا السَّيُولُ عَنِ الطَّلُولِ كَأَنَّهَا
 زُبُرٌ تُجَدُّ مُتَوْنَهَا أَقْلَامُهَا^(٤)
 أَوْ رَجْعُ وَاشْمَةٍ أَيْسَفُ نَزْوَرِهَا
 كِفْفًا تَعْرِضُ فَوْقَهُنَّ وَشَامِهَا^(٥)

(١) السارية: السحابة الليلية الماطرة. المذجن: الملبس آفاق السماء بظلامه. الأرزام: التصويت.

(٢) الإبهقان: الجرجير البري. اطفلت: صار لها أطفال. الجهلتين: جانبي الوادي.

(٣) العين: بكسر العين: واسعات العيون. الاطلاء: ولد الوحش حين يولد إلى أن يأتي عليه شهر. عودًا: حديث التاج. الأجل: القطيع من بقر الوحش. الجمع: آجال. الفضاء: الصحراء. البهام: أولاد الضأن.

(٤) جلا: كشف. الزبر: جمع الزبور: الكتب. تجدد: تجدد.

(٥) الرجع: التردد. الاسفاف: الذر. نزورها: دخانها. كففًا: مستديرات. تعرض: تظهر. الوشم: الكتابة على الجسم عن طريق الوخز بالإبر.

فوقفتُ أسألها وكيف سؤالنَا
صُماً خوالدَ ما بينُ كلامها^(١)
عَرِيتُ وكان بها الجميعُ فأبكرُوا
منها، وغودِرَ نُؤيها وتَمَامُها^(٢)
شاقَتك ظُعنُ الحيِّ حينَ تحمَلُوا
فتكنسُوا قُطناً تَصِرُ خِيَامُها^(٣)
من كلِّ محفوفٍ يُظَلُّ عَصِيه
زوجٌ عليه كِلَةٌ وقَرَامُها^(٤)
زُجَلاً كأنَّ نِعاَجَ تُوَضِّحُ فوقها
وظبَاءٌ وجنرةٌ عُطْفاً أَرَامُها^(٥)

-
- (١) الصُّمُّ: الخوالد: الصلابُ البواقي. يبين: يظهر.
(٢) أبكروا: بكرت من المكان: سرت منه بكرة. النؤي: نهير يحفر حول البيت لينصب إليه ماء البيت. الشامام: نوع من شجر اللين الذي يسد به ما في البيوت من خلل.
(٣) الظُعن: الرواحل. تحمَلُوا: ارتحلوا. تكنسوا: دخلوا الكُناس واستكنوا به. القطن: جمع قطين وهو الجماعة. الصرير: صوت الباب.
(٤) محفوف: حُف الهودج بالثياب: إذا غُطي به. وحف الناس حول الشيء: أحاطوا به. عَصِيه: عيدان الهودج. الزوج: ضرب من الثياب. كلة: ستر رقيق. القرام: الستر.
(٥) الزجل: الجماعات. النعاج: أناث بقر الوحش. توضح ووجرة: موضعان. عطفاً: كثيري العطف أي الشيء. أرامها: جمع رثم أي الظبي الخالص البياض.

حَفِزَتْ وَزَيَّلَهَا السَّرَابُ كَانَهَا
 أَجْزَاعُ بَيْشَةَ أَثْلَهَا وَرُضَامُهَا^(١)
 بَلْ مَا تَذَكَّرُ مِنْ نَوَارٍ وَقَدْ نَأَتْ
 وَتَقَطَّعَتْ أَسْبَابُهَا وَرِمَامُهَا^(٢)
 مَرِيَّةٌ حَلَّتْ بِفَيْدٍ، وَجَاوَرَتْ
 أَهْلَ الْحِجَازِ، فَأَيْنَ مِنْكَ مَرَامُهَا^(٣)
 بِمَشَارِقِ الْجَبَلَيْنِ أَوْ بِمُحَجَّرٍ
 فَتَضَمَّنَتْهَا فَرْدَةٌ فَرُخَامُهَا^(٤)
 فَصُورَاتُكَ إِنْ أَيْمَنْتَ فَمِظْنَةُ
 مِنْهَا وَخَافَ الْقَهْرُ أَوْ طِلْخَامُهَا^(٥)
 فَاقْطَعْ لُبَانَةً مَنْ تَعْرِضُ وَضَلُّهُ
 وَلَشَرُّ وَاصِلٍ خُلَّةٍ صَرَامُهَا^(٦)

(١) الحفز: الدفع. الأجزاء: جمع جزع وهو منعطف الوادي. بيشة: اسم

واد. الأثل: شجر. الرضام: الحجارة.

(٢) نوار: اسم المرأة التي ينشعب بها الشاعر. النأي: البعد. الرمام: قطعة من الجبل خلقة ضعيفة.

(٣) مريّة: نسبة إلى بني مريّة. فيد: اسم بلدة.

(٤) عنى بالجبلين جبلي طيء أجاً وسلمى. محجر: اسم جبل. فردة: جبل منفرد عن سائر الجبال. رخام: أرض متصلة بالجبل المنفرد.

(٥) صوراتك: وخاف القهر وطلخام أسماء امكنة.

(٦) اللبانة: الحاجة. الخلة: المودة المتناهية. الصرام: القطع.

وَاَحْبُ النِّجَامِ بِالْجَزِيلِ، وَصَرْمُهُ
 بَاقٍ إِذَا ظَلَعَتْ وَزَاغَ قِوَامُهَا^(١)
 بِطَلِيحٍ أَسْفَارَ تَرَكْنَ بَقِيَّةً
 مِنْهَا، فَأَحَقَّ صَلْبُهَا وَسَنَامُهَا^(٢)
 فَإِذَا تَغَالَى لَحْمُهَا وَتَحَسَّرَتْ
 وَتَقَطَّعَتْ بَعْدَ الْكَلَالِ خِدَامُهَا^(٣)
 فَلَهَا هَبَاتٌ فِي الزُّمَامِ كَأَنَّهَا
 صِهْبَاءٌ خَفَتْ مَعَ الْجَنُوبِ جَهَامُهَا^(٤)
 أَوْ مُلِمِعٌ وَسَقَتْ لِأَحْقَبٍ لَاحَهُ
 طَرْدُ الْفَحُولِ وَضَرْبُهَا وَكِدَامُهَا^(٥)

(١) حَبْوَتُهُ: أَعْطِيَتْهُ. الْمَجَامِلُ: الَّذِي يَجَامِلُ بِالْمُودَةِ. الْمَصَانِعُ: الظَّلْعُ:
 غَمَزَ فِي الدُّوَابِّ. الزَّيْغُ: الْمَيْلُ. وَالْإِزَاغَةُ: الْإِمَالَةُ. قِوَامُ الشَّيْءِ: مَا
 يَقُومُ بِهِ.

(٢) طَلِيحٌ: مَعْيِي. الْأَحْتَاقُ: الضَّرْمُ.
 يَقُولُ الزَّوْزَنِيُّ: «فَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى قَطِيعَتِهِ بِرُكُوبِ نَاقَةٍ قَدْ اعْتَادَتْ الْأَسْفَارَ
 وَمَرَنْتَ عَلَيْهَا. فَضَمَرُ صَلْبِهَا وَسَنَامُهَا.

(٣) تَغَالَى لَحْمُهَا: ارْتَفَعَ إِلَى رُؤُوسِ الْعِظَامِ. تَحَسَّرَتْ: كَانَتْ عَارِيَةً مِنْ
 اللَّحْمِ. الْخِدَامُ: سَيُورٌ تَشُدُّ بِهَا النِّعَالُ إِلَى أَرْسَافِ الْإِبِلِ.

(٤) هَبَابٌ: نَشَاطٌ. الصِّهْبَاءُ: الْحَمْرَاءُ. أَيُّ كَانَتْهَا سَحَابَةُ صِهْبَاءٍ. خَفَتْ:
 أَسْرَعَ. الْجَهَامُ: الْمَطَرُ.

(٥) الْمَعْتُ الْأَثَانُ: أَشْرَفَ طَيْبُهَا بِاللِّينِ. سَقَتْ: حَمَلَتْ. الْأَحْقَبُ: الْبَعِيرُ
 الَّذِي فِي وَرْكَيْهِ بَيَاضٌ. لَاحَهُ وَلَوْحَهُ: غَيْرُهُ. الْكِدَامُ: بِمَعْنَى الْكِدْمِ وَهُوَ
 الْعَضْرُ.

يعلو بها حَدَبَ الإِكَامِ مَسْحَجٌ .
 قد رابه عصيانها ووحامها^(١)
 بأجزاء الثَّلْبُوتِ يربأُ فوقها
 قفرُ المراقبِ خوفها أَرَامها^(٢)
 حتى إذا سلخا جُمادى سنة
 جزأ فطال صيأه وصيامها^(٣)
 رجعا بأمرهما إلى ذي مِرَّةٍ
 حصيدٍ، ونُجِعُ صريمةِ إبرامها^(٤)
 ورمى دوابرها السفاء، وتهيجت
 ريحُ المصاريفِ سَومُها وسِهامُها^(٥)

(١) جذب الإكام: ما أحذوب من الأكام. السحج: القشر أو الخدش.

الوحام: اشتهاه الحبلى بالشيء.

(٢) الأحزة: القف. الثلبوت: اسم مكان. القفر: الخالي. المراقب: جمع

مرقبة وهو الموضع الذي يقوم عليه الرقيب ويريد بها الأماكن المرتفعة.

أرام: اعلام الطريق.

(٣) سلخا جُمادى سنة: أي سلخا سنة أشهر من الشتاء جُمادى، اسم

للشَّاء. جزأ: اكتفى بالرطب عن الماء.

(٤) ذي مرة: قوي. شديد البأس. حصد: محكم. الصريمة: العزيمة.

الإبرام: الإحكام.

(٥) الدوابر: مآخر الحوافر. السفاء: الشوك. تهيجت: تحركت.

المصاييف: الصيف. السوم: المرور. السهام: شدة الحر.

فتنازعا سَبِطاً يَطِيرُ ظِلَالُهُ
 كدُخانٍ مشعَلَةٍ يشبُّ ضِرَامُهَا^(١)
 مَشْمُولَةٌ غُلَّتْ بِنَابِتٍ عَرْفَجٍ
 كدُخانٍ نارٍ ساطِعٍ أَسْنَامُهَا^(٢)
 فَمَضَى وَقَدَّمَهَا وَكَانَتْ عَادَةً
 مِنْهُ إِذَا هِيَ عَرَدَتْ إِقْدَامُهَا^(٣)
 فَتَوَسَّطَا عَرَضَ السَّرِيِّ، وَصَدَّعَا
 مَسْجُورَةً مُتَجَاوِراً قُلَامُهَا^(٤)
 مُحْفُوفَةً وَسَطَ الْبِرَاعِ يُظِلُّهَا
 مِنْهُ مُصْرَعٌ غَابَةٌ وَقِيَامُهَا^(٥)

-
- (١) التنازع: التجاذب. السبط: هنا الدخان الطويل الممتد. الضرام: دفاق الحطب. وقد ضرمت النار: التهبت.
 (٢) مشمولة: هبت عليها ريح الشمال. غُلَّتْ: خُلِطَتْ. العرفج: ضرب من الشجر. الأسنام: جمع سنام وهو الارتفاع والرفع.
 (٣) عَرَدَتْ: أَخْرَزَتْ. الإقدام: هنا بمعنى التقدمة أي تقدمتها. لذلك أنث الفعل.
 (٤) السري: النهر الصغير. التصديق: التشقيق. مسجورة: ملأى. القلام: النبات.
 (٥) البراع: القصب. المصرع: مبالغة المصروع. الغابة: الأجمة. القيام: جمع قائم.

أَفْتَلِكْ أُمَّ وَحْشِيَّةً مَسْبُوعَةً
 خَذَلْتُ، وَهَادِيَةً الصَّوَارِ قِوَامَهَا^(١)
 خَنْسَاءٌ ضَيَّعَتِ الْفَرِيرَ فَلَمْ يَرِمْ
 عُرْضَ الشَّقَائِقِ طَوْفُهَا وَبُغَامَهَا^(٢)
 لَمُعْفَرٍ قَهْدٍ تَنَازَعِ شِلْوَةٍ
 غُبْسٌ كَوَاسِبٌ لَا يُمْنُ طَعَامَهَا^(٣)
 صَادَفَنَ مِنْهَا غِرَّةٌ فَأَصْبَنَهَا
 إِنَّ الْمَنَايَا لَا تَطِيْشُ سِهَامَهَا^(٤)
 بَاتَتْ، وَأَسْبَلَ وَاكْفٌ مِنْ دِيْمَةٍ
 يُرْوِي الْخُمَائِلَ دَائِمًا تَسْجَامُهَا^(٥)

(١) مسبوعة: أي قد أصابها السبع بافتراس ولدها. هادية: متقدمة. الصوار: قطع بقر الوحش.

(٢) خنساء: متأخرة الأربة. الفرير: ولد البقرة الوحشية. لم يرم: لم يبرح. العرض: الناحية. الشقائق: جمع شقيقة أرض بين رملتين. البغام: الصوت الرقيق.

(٣) معفر: ملقى على أديم الأرض. قهد: أبيض. التنازع: التجاذب. شلوه: بقية جسده. غبس: رمادية. المن: القطع.

(٤) الغفلة والطيش: الانحراف والعدول.

(٥) وكف: قطر والركف القطر. ديمة: المطرة التي تدوم مدة. الخميلة: الرملة ذات النبت. تسجامها: انصبابها.

يعلمو طريقةً مَتْنَهَا متواترٌ
 في ليلة كَفَرِ النجومَ ظَلامُهَا^(١)
 تجتاف أصلاً قالصاً متنبِّذاً
 بعُجوبٍ أنقَاءٍ يميلُ هِيَامُهَا^(٢)
 وتضيءُ في وجه الظلامِ مُنِيرَةٌ
 كجُمانَةِ البحريِّ، سُلَّ نِظامُهَا^(٣)
 حتى إذا حَسَرَ الظلامُ وأسفرت
 بكرت تزلُّ عن الشرى أزلَامُهَا^(٤)
 عَلِيَتْ تَرَدُّدٌ في نهَاءٍ صَعَائِدِ
 مَبْعاً تَوَاماً كاملاً آيَامُهَا^(٥)

-
- (١) طريقة متنها: خطٌّ من ذنبها إلى عنقها. كفر: غطى.
 (٢) الاجتفاف: الدخول في جوف الشيء. التنبذ: التثني. العُجْب: أصل
 الذنب. النقا: الكثيب من الرمل. الهيام: ما لا تماسك به من الرمل.
 يقول الزورني في شرحه: «وقد دخلت البقرة والوحشية في جوف أصل
 شجرة منتعج عن سائر الشجر. وقد قلصت اغصانها، وذلك الشجر في
 أصول كتابان الرمل يميل ما لا يتماسك منها عليها لهطلان المطر وهبوب
 الريح».
 (٣) وجه الظلام: أوله. جمانة: الدرة المصوغة من الفضة. البحري:
 الصدف البحري.
 (٤) الانحسار: الانكشاف والانجلاء. الاسفار: الاضاء. الازلام: القوائم.
 (٥) العلة والهلع بمعنى واحد. تردد: تَرَدَّد. نهاء: جمع نهى أي غدير.
 صعائد: اسم مكان. تواماً: جمع نوام.

حتى إذا يثست وأسحق حالق
 لم يُبَلِّه إرضاعها، وفطامها^(١)
 فتوجست رز الأنيس، فراعها
 عن ظهر غيب والأنيس سقامها^(٢)
 فعدت كلاً الفرجين تحسب أنه
 مولى المخافة خلفها وأمامها^(٣)
 حتى إذا يش الرُماة وأرسلوا
 غُضفاً دواجن قافلاً أعصامها^(٤)
 فلججن واعتكرت لها مدرية
 كالسمهرية حذها وتمامها^(٥)
 لتذودهن وأيقنت إن لم تذد
 أن قد أحتم من الحتوف حمامها^(٦)

-
- (١) الحق: الخلق. والاسحاق: حالق. ضرع: ممتليء لبناً.
 (٢) الرز: الصوت الخفي. راعها: أفرعها. السقام: المرض. والسقيم: المريض.
 (٣) الفرج: موضع المخافة. وما بين قوائم الدواب فرج. مولى: قال
 ثعلب: «إن المولى في هذا البيت بمعنى الأولى بالشيء». كقوله تعالى:
 ﴿ما واكم النار هي مولاكم﴾. أي «أولى بكم».
 (٤) غُضفاً: مسترخيات الأذان. الدواجن: الملمات. قافلاً أعصامها:
 بطونها يابسة ضامرة.
 (٥) عكر واعتكر: عطف. المدرية: طرف القرن. السمهرية: رماح منسوبة
 إلى قين يدعى سمهر في البحرين.
 (٦) لتذودهن: لتردعن. أحتم: قرب. الحتوف والحمام: بمعنى الموت..

فتقصّدت منها كساب، فضُرْجَتْ
 بدم، وغودر في المَكْرُ سُخَامُهَا^(١)
 فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحي
 واجتنب أردية السراب إكامها^(٢)
 أقضي اللبانة لا أفرط ريبة
 أو أن يلوم بحاجة لَوَامُهَا^(٣)
 أو لم تكن تدري (نوار) بأنني
 وصّال عقد حائل، جَذَامُهَا^(٤)
 تَرَاكَ أمكنة إذا لم أرضها
 أو يعتلق بعض النفوس حمامها^(٥)
 بل أنت لا تدرين كم من ليلة
 طلق لذيذ لهوها ونذامها^(٦)
 قد بُت سامرها، وغاية تاجر
 وافيت إذ رُفِعَتْ وعزّ مُذَامُهَا^(٧)

(١) تقصّدت: قتلت. كساب وسخام: أسما كليين. المَكْرُ: موضع الكر.

(٢) فبتلك: أي الناقصة. اللوامع: لوامع السراب. اجتنب: لبس.

(٣) اللبانة: الحاجة. التفريط: التضييع. الريبة: التهمة. اللوام: مبالغة اللاتم.

(٤) الحبال: مستعارة هنا للعهد والمودة. الجذم: القطع.

(٥) أراد ببعض النفوس نفسه. والحمام: الموت.

(٦) ليلة طلق: ليلة ساكنة لا حر فيها ولا قر. الندام: جمع نديم.

(٧) الغاية: راية ينصبها الخمار ليعرف مكانه. وأراد بالتاجر الخمار. وافيت

المكان: أتته. المدام: الخمر. سميت بها لأنها قد أديمت في دنها.

أَغْلِي السُّبَاءَ بِكُلِّ أَدَكْنَ عَاتِقٍ
 أَوْ جَوْنَةٍ قُدَحْتُ وَفُضَ خِتَامُهَا^(١)
 وَغَدَاةٍ رِيحٍ قَدْ وَزَعْتُ وَقِرَّةً
 قَدْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زَمَامُهَا^(٢)
 بِصَبُوحٍ صَافِيَةٍ وَجَذْبِ كَرِينَةٍ
 بِمُؤَثَّرٍ تَأْتَالُهُ إِبْهَامُهَا^(٣)
 بَادَرْتُ حَاجَتَهَا الدَّجَاجَ بِسُحْرَةٍ
 لِأَعْلَ مِنْهَا حِينَ هَبَّ نِيَامُهَا^(٤)
 وَلَقَدْ حَمَيْتَ الْحَيَّ تَحْمِلَ شِكَّتِي
 قُرْطُ وَشَاحِي، إِذْ غَدَوْتُ لَجَامُهَا^(٥)

(١) السُّبَاءُ: الخمرة المشتراة. الأَدَكْنَ: الذي فيه دكة. الجَوْنَةُ: السوداء.

والمعنى: أو خابية سوداء. قُدَحْتُ: غرقت. فُضَ: كبر.

(٢) وروي البيت أيضاً:

وَغَدَاةٍ رِيحٍ قَدْ وَزَعْتُ وَقِرَّةً

إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زَمَامُهَا

الْقِرَّةُ وَالْقَرُّ: البرد. وشرح البيت: كم من غداة تهب فيها ريح الشمال.

قَدْ كَفَفَتْ عَادِيَةَ الْبَرْدِ بِنَحْرِ الْجَزْرِ لِلنَّاسِ.

(٣) الْكَرِيَّةُ: الجارية العَوَاةُ جمع كَرَائِنَ. الْإِثْيَالُ: المعالجة، أَرَادَ بِأَوْتَارِ الْعُودِ.

(٤) بَادَرْتُ حَاجَتَهَا الدَّبُوكَ بِسُحْرَةٍ: أَيِ تَعَاظَيْتُ بِشَرْبِهَا قَبْلَ أَنْ يَصْدَعَ

الدَّبُوكَ. لِأَعْلَ: لِأَشْرَبَ مِنْهَا مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى.

(٥) الشِّكَّةُ: السِّلَاحُ. قُرْطُ: فَرَسٌ مُتَقَدِّمٌ سَرِيعٌ خَفِيفٌ. يَقُولُ: لَقَدْ حَمَيْتَ

قَبِيلَتِي بِفَرَسٍ مُتَقَدِّمٍ سَرِيعٍ وَوَشَاحِي لَجَامِهَا.

فَعَلَوْتُ مُرْتَقِباً عَلَى ذِي هَبْوَةٍ
 جَرَجَ إِلَى أَعْلَامِهِنَّ قَتَامَهَا^(١)
 حَتَّى إِذَا أُلْقَتْ يَدَا فِي كَافِرٍ
 وَأَجَزَ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظَلَامَهَا^(٢)
 أَسْهَلَتْ وَانْتَصَبَتْ كَجَذَعٍ مَنِيفَةٍ
 جَرْدَاءٍ يَحْصُرُ دُونَهَا جُرَامَهَا^(٣)
 رَفَعْتُهَا طَرْدَ النِّعَامِ وَشَلُّهُ
 حَتَّى إِذَا سَخَنْتِ، وَخَفَ عِظَامَهَا^(٤)
 قَلَقْتُ رِحَالَهَا وَأَسْبَلَ نَحْرَهَا
 وَابْتَلُ مِنْ زَبَدِ الْحَمِيمِ حَزَامَهَا^(٥)

(١) مرتقباً: المرتقب. المكان المرتفع الذي يقوم عليه الرقيب. الهبوة: الغيرة. الحرج: الضيق جداً. الأعلام: الجبال أو الريات. القتام: الغبار.
 (٢) الكافر: الليل والكفر: السر. سمي به لكفره الأشياء أي لستره. الأجنان: السر. الثغور: مواضع المخافة. عورات الثغور: أشدها مخافة.

(٣) أسهل: أتى السهل من الأرض. المنيفة: العالية الطويلة. جراد: قليلة السعف. الحصر: ضيق الصدر. جرامها: الذي يجرم النخل أي يقطع أحماله.

(٤) رفعتها: مبالغة رفعت.

المعنى: يقول الزوزني: حملت فرسي وكلفتها عدواً مثل عدو النعام حتى إذا جذت في الجري وخفت عظامها في السير.
 (٥) القلق: سرعة الحركة. الرحال: السرج. أسبل: أمطر. أزيد الحميم: قطر العرق.

ترقى وتطعن في العنان، وتنتحي
 ورد الحمامة إذ أجدَّ حَمَامَهَا^(١)
 وكثيرة غرباؤها، مجهولة
 تُرجى نوافلها، ويُخشى ذامها^(٢)
 غلب تشذُر بالذحول كأنها
 جنُّ البديّ، رواسيا أقدامها^(٣)
 أنكرت باطلها وبؤت بحقها
 عندي ولم يفخر عليّ كرامها^(٤)
 وجزور أيسارٍ دعوت لحتفها
 بمغالتي مُتشابه أجسامها^(٥)
 أدعو بهنّ لعاقِرٍ أو مطفل
 بذلت لجيران الجميع لحامها^(٦)

(١) ترقى: تصعد. تنتحي: تعتمد.

(٢) نوافلها: عطاياها. ذامها: عيبها.

(٣) الغلب: الغلاظ الأعناق. التشذُر: التهديد. الذحول: الاحقاد، الواحد

ذحل. البديّ: اسم موضع. الرواسي: الثواب.

(٤) أبوه بالنعمة: أقرُّ بها، وروي «يوماً بدل «عندي».

(٥) جزور: الشاة المعذبة للذبح، ايسار: جمع يسر وهو صاحب اليسر.

المغالتي: سهام.

(٦) العاقِر: المرأة التي لا تلد. مطفل: التي لها أطفال. اللحام: جمع لحم.

فالضيف والجار الجنبُ كأنما
هبطا تبالةً مخصباً أهضامها^(١)
تأوي إلى الأطناب كلُّ رذية
مثل البلية قالصٍ أهدامها^(٢)
ويكَلَلون إذا الرياح تناوحت
خُلجاً تُمَد شوارعاً أيتامها^(٣)
إنَّا إذا التقت المجامع لم يَزَلْ
منا لَزازٌ عظيمة جُشَامها^(٤)
ومقسَّم يعطي العشيرة حقَّها
ومُغذَّمر لحقوقها، هَضَامها^(٥)

(١) الجنب: الغريب. تبالة: واد خصيب من أودية اليمن. الهضم: المعطش من الأرض.

(٢) الأطناب: حبال البيت. الرذية: الناقة التي تتخلف في السفر لفرط هزالها. البلية: الناقة التي تشد على قبر صاحبها حتى تموت. قالص: القلوص من القصر. الأهدام: الأخلاق من الثياب، الثياب البالية الرثة.

(٣) تناوحت: تقابلت. الخُلج: نهر صغير يخلج من نهر كبير أو من بحر. تُمَد: تزداد. شوارع: جمع شارع: أي خائض.

(٤) اللزاز: الذي يلزم الشيء ويعتمد عليه يقال لَزَّ فلان بفلان إذا لزمه. والمعنى: إذا اجتمعت جماعات القبائل، فلم يزل يسودهم رجل منا يقيم الخصوم عند الجبال، ويحشم عظامهم.

(٥) مغذمر: غاضب. الهضم: الظلم.

فضلاً وذو كرمٍ يعين على الندى
 سمحٌ كسوب رغائب غنامها^(١)
 من معشر سنت لهم أبأؤهم
 ولكل قوم سنة وإمامها^(٢)
 أن يفزعوا تلق المغافر عندهم
 والسن يلمع كالكوكب لأؤها^(٣)
 لا يطعمون ولا يبور فعألهم
 إذ لا تميل مع الهوى أحلامها^(٤)
 فاقنع بما قسم الملك، فإنما
 قسم الخلائق بيننا علأها^(٥)
 وإذا الأمانة قُسمت في معشر
 أوفى بأوفر حظنا قسامها^(٦)
 فبنى لنا بيتاً رفيعاً سمكه
 فسما إليه كهلهما وغلأها^(٧)

(١) الندى: الجود. الرغائب: هي ما رغب فيه من خصلة أو غيرها. غنام: مبالغة الغانم.

(٢) سنة: شرعة.

(٣) يفزعوا: يستغيثوا ويلجأوا. السن: الأسمه. اللام: الدرع.

(٤) الضيع: تدنس العرض وتلطيحه. يبور: يفسد.

(٥) الملك: الله تعالى.

(٦) معشر: قوم. أوفى: كمل ووفر. والوفور: الكثرة.

(٧) وروي البيت: «فبنوا» بدل «فبنى».

وهم السُّعاة إذا العشيرة افظعت
 وهم فوارسُها وهم حُكَّامُها^(١)
 وهم ربيعٌ للمجاور فيهم
 والمرملات، إذا تطاول عامُّها^(٢)
 وهم العشيرة أن يبْطِء حاسد
 أو أن يميل مع العدو لثامها^(٣)

(١) السُّعاة: جمع الساعي. أفظعت: بأمر فظيع.

(٢) أرمل القوم: نفذ زادهم.

(٣) قوله أن يبْطِء حاسد: يقول الزوزني: معناه على قول البصريين كراهية أن يبْطِء حاسد وأن يميل. وعند الكوفيين: «ألا يبْطِء حاسد. وألا يميل كقوله تعالى: ﴿يبين لكم الله أن تضلوا﴾ أي كراهية أن تضلوا. أو كي لا تضلوا، أو ألا تضلوا.

والمعنى: أنهم يتوافقون ويتعاضدون كراهية أن يبْطِء الحساد بعضهم عن نصر بعض، ويميل لثامهم إلى الأعداء أو مظاهرتهم إياهم على الأقارب.

شرح المعلقة

يهدف لبيد في معلقته إلى غايات سامية، فهو يحلم بحياة خصبة نقية، ويلجأ إلى تصويرها تصويراً دقيقاً يكشف عما فيها من الحب والغيرة والخيبة والإصرار.

لقد فهم لبيد الحياة بعمق، لذلك تاق إلى رؤيتها خالية من كل كدر، وحاول تنقيتها من كل ما يشوبها من الألوان التي لا تستهويه، فلجأ إلى عرض طائفة من القصص الساحرة الجميلة. ولبيد كغيره من شعراء الجاهلية يستهل معلقته بالوقوف على الأطلال، ويبدو ذلك وكأنه يلخص كل ما في القصيدة من أفكار مقاومة الدهر والفناء والتعلق بالحياة واستمرارها نقية رائعة. وهو في حديثه عن الأطلال يذكر أماكنها وما أصابها بعد رحيل الأحبة، وما مرَّ بها من الحظوب والأحداث بتنسيق جميل وتسلسل لا يعرف الضعف والتفكك. فالحياة السابقة لم تذهب ولكنها استقرت في الذاكرة وفي الأطلال، ولا تلبث السماء أن تجود بالأمطار فتنبو البذور وترتفع نباتاً وتدب الحياة من جديد فتسرح قطعان الظباء والنعام وبقر الوحش ساكنة مطمئنة، وتتجمع أولادها في الفضاء أجلاً أجلاً، ثم يلتقي الحاضر بالماضي، لقد بعث المطر الحياة، ثم راح السيل يجدد الماضي

ويكشف عنه الركام، فإذا الكتابة تعاد وتتجدد، وإذا الوشم
يردد مرة إثر مرة، وإذا الزمن تيار لا يعرف الانقطاع. تلك
صورة الخيال التي ارتسمت في عقل الشاعر، وسرعان ما
يستيقظ من حلمه ويصطدم بصخرة الواقع، فهو لا يرجو أملاً
من مساءلة الديار، لأنها عريت بارتحال الأحبة الذين كانوا
مصدر البهجة والجمال والفرح، والشاعر في تصوير رحيل
الأحبة يعبر عن شوقه إليهم، وحزنه لفراقهم، وفي هذا الجو
العاطفي المرهف أدرك الشاعر حزمه وعزمه، فانصرف عن
البكاء الذي لا ينبغي له أن يطول إلى الحديث عن صاحبه
نوار وما يعانيه من يأس ومرارة، فهو ناء عنها لا يأمل إليها
وصولاً، ولعلها تكون في الحجاز أو في اليمن، أو في
غيرهما من المواضع، ويوسع الشاعر المعنى في هذا
المجال، إلى أن ينتهي إلى نتيجة المحتومة وهي اليأس
المريح والتأسي عن الحزن بالارتحال:

فاقطع لبانة من تعرض وصله
ولخير واصل خله صرامها
واحب المجامل بالجزيل وصرمه
باق إذا ضلعت وزاغ قوامها
بطليح أسفار تركن بقية
منها فأحنق صلبها وسنامها.

متذكراً (نوار) التي تقطعت الأسباب بينه وبينها، محافظاً
في تذكره على إياته وكرامته راسماً منهجاً له في الحب
يقتضي فيه أن يكون الحب متبادلاً بين الطرفين، بين الرجل
والمرأة، لذلك فهو يرى أن يقطع حاجته من كل من لم يستقم
له مودته، ويظهر المودة لمن أظهرها له، إنها سنة الحياة
وحكمة الوجود، ولما يش من لقاء نوار تعز عنها باقتحام
الصحراء وتجشم أهوالها وهو يصل إليها دون تكلف ولا مشقة
ويربط النتيجة بالسبب مباشرة دون التواء وجهه، وفي رحلته
عبر الصحراء يتحدث عن ناقته، عونه في تنقلاته وأسفاره،
ويمعن الشاعر في وصف سرعة الناقة وجلدها وتحملها قطع
المفاظات بجلد وقوة تحمل، مستخدماً أساليب التشبيه
والاستعارة والمجاز ليفني الصورة ويوشح قصصه بالرواء
والجمال، فهو يشبهها حيناً بالسحاب الخفيف الذي يطيع
أيسر الريح، وحيناً آخر بالأتان الوحشية، وقد تنافست فيها
الفحول، وازدحمت عليها، وكثر فيما بينها الخصام، ثم
استطاع واحد منها أن يظفر بها من دون أصحابه، وأن
يصطفها لنفسه ظاناً أن له عليها حقاً، لكن الشك سرعان ما
تسرب إلى نفسه، وارتاب، وملك عليه أمره، فأثر حياة
العزلة، خاصة بعد أن رأى تمنع صاحبته وتجنيتها عليه، فهو
يدفعها أمامه، وهي تمضي مسرعة تود لو تفوته، وهو يعدو في

إثرها، وما يزال على ذلك حتى تتم لهما العزلة في مكان مرتفع، خالٍ من الماء، كثير النبت والعشب، ويقضيان في هذا المكان فصل الشتاء فيرعيان النبات الرطب، وإذا ينقضي الشتاء ويقبل الحر، ويجف النبات، يشتد بهما العطش، فهما في حاجة إلى الماء، وهو غير متيسر، ولا مناص من التفتيش عنه، وبعد تردد، صمما على ورود الماء، فدفعا أمامه لتسعى بين يديه غير قادرة على أن تتخلف عنه أو تفلت منه، وهي في عدوها السريع لا تأبه للشوك الذي يصيب دوابرها، محاولة الفرار، ولكنه لها بالمرصاد، ويثيران في عدوهما غباراً رقيقاً كأنه ثوب يتنازعانه، أو كأنه دخان نار مضطربة أوقدت باليابس، حتى يصلا إلى الماء وهو ينبعث من عين غزيرة تجري في غابة من القصب قد عبث بها الريح.

ويرمز الدكتور مفيد قميحة في تحليله لمعلقة لبيد بالشتاء إلى حالة الاضطراب والتمرد، وبالربيع إلى عودة الهدوء والصفاء والبهجة، وبالصيف إلى حالة السعي الذي يمثله الورود إلى الماء، وهذا التحليل ينطبق على طبيعة الحياة الإنسانية، ولعله يتطابق مع ظروف حياة لبيد وأحداثها.

حتى إذا سلخا جمادى سنة
جزاً فطال صيامه وصيامها

رجعا بأمرهما إلى ذي مرة
حصد ونجح صريمة إبرامها
ورمى دوابرها السفا وتهيجت
ريح المصايف سومها وسهامها.

والصراع في قصة البقرة الوحشية أعنف منه في القصة السابقة، ومواطن الخوف أكثر، إنها صورة العدوان الشرس على الحياة وللإيمان العميق بها أيضاً، تبدو فيها مشاعر الندم والحزن والحيرة القاتلة، والتعلق بالحياة والدفاع عنها، وهي قصة تفيض بالحياة، وبالعاطفة، قصة البقرة الوحشية البائسة التي غالها الحزن والندم فراحت تطلب ولدها الذي غفلت عنه ففرسته السباع، وانطلقت هائمة في الأرض سبعة أيام كاملة، تفتش ما وسعها النهار، حتى إذا أدركها الليل راحت تلتمس لنفسها في أصول الشجر الملتفت بحيث يقيها المطر والبرد، وكانت هذه البقرة تفتش عبثاً فقد أكل ابنها السبع ولم يبق منه إلا أشلاء مطروحة على رمل الصحراء، وبينما هي تبحث عن أمومتها الضائعة يطاردها عدوان شرس يهدد حياتها، وإذا هذه الأم الحزينة بقرة يطلبها القناص، وإذا غريزة الدفاع عن النفس والحرص على الحياة تغلب غريزة الأمومة فتندفع مسرعة لا تلوي على شيء وقد ملكها الرعب وتسلم نفسها لقوائمها النحاف حتى أياست الرماة، وفاتت النبل، إلا أن

كلاب الصيد كانت بالمرصاد فعدت خلف البقرة، وإذا عرفت
أن لا نجاة لها إلا باستقبال الخطب عطفت على هذه الكلاب
مسددة لها طعنات الموت حتى كتبت لها الحياة:

فتوجست رزَّ الأنيس فراعها
عن ظهر غيب والأنيس سقامها
فعدت كلا الفرجين تحيب أنه
مولى المخافة خلفها وأمامها
حتى إذا يش الرماة وأرسلوا
غضناً دواجن أعصامها
فلحقن واعتكرت لها مديرية
كالسمهرية حدها وتمامها
لتذودهن وأيقنت إن لم تذد
أن قد أحم من الحتوف حمامها
فتقصدت منها كساب فضرجت
بدم وغودر في المكر سخامها.

وهكذا أشبع الشاعر تصوير ناقته وتشبيه عدوها بصور
السحاب والأتان والبقرة الوحشية، حاول أن يرسم من خلالها
صورة إنسانية راقية، متمرداً على عادات مجتمعه رافضاً واقعه
وتقاليده.

ثم انتقل الشاعر متحدثاً عن نفسه، فهو يحتمل الخطوب والهجران، ثم يذكر نواراً بصفاته التي ترفض الإذلال في الحب، لأنه يعتز بنفسه وبكرامته ويتمسك برجولته، فإذا أعرضت عنه أعرض عنها، ويتابع متحدثاً إليها بما يعرف لنفسه وبما يعرف الناس له من صفات الشجاعة والبأس والكرم والفروسية، ويخاطبها عاتباً مفاخرأً، ويصور لها حياته في السلم لاهياً في الليل وفي النهار، متردداً على الحانات، مقامراً لا يستكثر من الربح ولكن ليغني السائل ويطعم الجائع، ثم يتحدث لها عن فروسيته أثناء الحرب وشجاعته في مراقبة العدو وتحسس أنبائه، ويصف موقفه في محافل الخصومة والمفاخرة، وجوده الذي شمل الأقارب والأبعد. وكثيرة عزباؤها مجهولة

ترجى نوافلها ويخشى ذامها
غلب تشذر بالذحول كأنها
جن البدي رواسياً أقدامها
أنكرت باطلها وبؤت بحقها
عندي ولم يفخر علي كرامها.

وبعد أن أرض الشاعر نفسه وافتخر بها، تحدث عن قومه وأمجادهم، ووصفهم بما هم أهل له من الكرم والنجدة والبأس والسلطان.

وختاماً. تلك معلقة لبيد بكل ما فيها من صور الطبيعة
والإنسان والحيوان، وبكل ما يرتسم فيها من معانٍ إنسانية
خلاقة، ولئن كان كثير من ألفاظها غريباً حوشياً فذلك نابع من
طبيعة الصحراء الجافة التي عاش في اكنافها الشاعر، ومهما
يكن فإن في قصيدته مخافة وقوة وفي قصصه جمال وروعه
وقيم إنسانية، وفي بنائها إحكاماً ووحدة معنوية واتساقاً بديعاً،
مما جعلها خليقة أن تكون كما قال الدكتور طه حسين من أروع ما
حفظ الشعر العربي .

نماذج من شعره

في الفخر

قال يفتخر ويعدد مآثره:

أتيت أبا هِنْدٍ بهنْدٍ ومالكاً
بأسماء، إني من حُماةِ الحَقَائِقِ
دعّنتني وفاضتُ عَيْنُهَا بخَدُورَةٍ
فجئتُ غَشَّاشاً إذ دَعَتْ أُمُّ طَارِقِ
وأعددتُ مَأْثُوراً قليلاً حُشُورُهُ
شديدَ العِمَادِ ينتحي للطرائِقِ
واخلَقَ محموداً نَجِيحاً رَجِيْفُهُ
وأَسَمَرَ مرهُوباً كريمَ المَآزِقِ
وَخَلَفْتُ ثُمَّ عَامِراً وابنَ عَامِرِ
وعمرأُ وما مني بديلُ بَعَائِقِ
ومني على الثُّبَاقِ فضلٌ ونِعْمَةٌ
كما نَعَشَ الدَكْدَاكُ صوبَ البَوَارِقِ
وقلتُ لعَمْرِي كيف يُتْرَكَ مَرْتَدُّ
وعَمْرُو ويسري مَالُنَا في الأفَارِقِ
فلولا احتيالي في الأمورِ ومِرَّتِي
لَبِيعَ سُبْيِي بالسُّوَيِّ النَوَافِقِ

فَذاكَ دِفَاعٌ عَنْ ذِمَارِ أَبِيكُمْ
إِذَا حَزَقَ السُّرْيَالُ حَذُّ الْمَرَافِقِ.

وله في معرض الفخر:

أَقْوَى وَعُرِّيَّ وَاسِطُ فَبَرَامُ
مَنْ أَهْلِهِ، فَصُورَاتُ فَخَزَامُ
فَالْوَادِيَانِ فَكُلُّ مَغْنَى مِنْهُمْ
وَعَلَى الْمِيَاهِ مُحَاضِرُ وَخِيَامُ
عَهْدِي بِهَا الْإِنْسُ الْجَمِيعُ وَفِيهِمْ
قَبْلَ التَّفَرِّقِ مَيْسِرُ وَنَذَامُ
لَا تُنْشَدُ الْحُمُرُ الْأَوَالِفُ فِيهِمْ
إِذْ لَا تُرَوِّحُ بِالْعَشِيِّ بِهِامُ
إِلَّا فِلَاءُ الْخَيْلِ مِنْهَا مُرْسَلُ
وَمُرَبِّطَاتُ بِالْفِنَاءِ صَبَامُ
وَجَوَارِنُ بَيْضُ وَكُلُّ طِمْرَةٍ
يَعْدُو عَلَيْهَا الْقَرَّتَيْنِ غَلَامُ
وَمُدَقُّ طَرَقِ النُّبُوحِ فَلَمْ يَجِدْ
مَأْوَى وَلَمْ يَكُ لِلْمُضْيِفِ سَوَامُ
أَوَيْتُهُ حَتَّى تَكْفَتْ حَامِدًا
وَأَهْلٌ بَعْدَ جُمَادِيَيْنِ حَرَامُ

وَصَبَأُ غَدَاةُ إِقَامَةٍ وَزَعَتْهَا
بِسِجْفَانٍ شِيزَى فَوْقَهُنَّ سَنَامُ
وَمَقَامَةٍ غُلْبِ الرِّقَابِ كَانَهُمْ
جِنُّ لَدَى طَرْفِ الْحَصِيرِ قِيَامُ
دَافَعْتُ خُطَّتَهَا وَكُنْتُ وَلِيَّهَا
إِذْ عَيَّ فَضْلُ جَوَابِهَا الْحَكَامُ
ضَارَسْتُهُمْ حَتَّى يَلِينَ شَرِيْسُهُمْ
عَنِي وَعِنْدِي لِلْجَمُوحِ لِحَامُ
وَبِكُلِّ ذَلِكَ قَدْ سَعَيْتُ إِلَى الْعُلَى
وَالْمَرْءُ يُحْمَدُ سَفِيْهِ وَيُلَامُ
مُتَخَصِّرِينَ الْبَابَ كُلُّ عَشِيَّةٍ
غُلْبًا مُخَالِطُ فَرْطِهَا أَحْلَامُ
تِلْكَ ابْنَةُ السُّعْدِيِّ أَضَحَتْ تَشْتَكِي
لَتُخَوِّنَ عَهْدِي وَالْمَخَانَةُ ذَامُ
وَلَقَدْ عَلِمْتُ لَوْ إِنْ عَلِمْتُكَ نَافِعُ
وَسَمِعْتُ مَا يَتَحَدَّثُ الْأَقْوَامُ
أَنِّي أَكَايِرُ فِي النَّدَى إِخْوَانَهُ
وَأَعِفُّ عِرْضِي إِنْ أَلَمَ لِمَامُ

في الرثاء

وقال يرثي أخاه أربداً:

ما إن تُعَرِّيَ المَنُونُ من أحدٍ
لا والدٍ مشفقٍ ولا وَلَدٍ
أخشى على أربَدِ الحَنُوفِ ولا
أرهَبُ نَوءِ السُّمَالِكِ والأسَدِ
فَجَّعَنِي الرِّعْدُ والصَّوَاعِقُ بالـ
فارسٍ يوم الكَرِيهَةِ النَّجْدِ
الحَارِبِ الجَائِرِ الحَرِيبِ إذا
جاء نَكِيباً وإن يَعدُّ يَعدُّ
يعفو على الجَهْدِ والسَّوَالِ كما
أنزل صَوْبُ الرِّيعِ ذِي الرُّصْدِ
لم يبلغِ العَيْنُ كُلَّ نَهْمَتِهَا
ليلة تُسمي الجِيَادَ كَالقِدْدِ
كُلُّ بَنِي حُرَّةٍ مَصِيرُهُمْ
قُلٌّ وإن أَكْثَرَتْ من العَدِّ

إِنْ يُغَبِّطُوا يُهَبِّطُوا وَإِنْ أَمَرُوا
 يَوْمًا يَصِيرُوا لَلْهَلْكِ وَالنَّكَدِ
 يَا عَيْنُ هَلَّا بِكَيْتِ أَرِيدُ إِذْ
 قَمْنَا وَقَامَ الْخَصُومُ فِي كَبَدِ
 وَعَيْنِ هَلَّا بِكَيْتِ أَرِيدُ إِذْ-
 أَلُوثَ رِيَّاحُ الشَّتَاءِ بِالْعَضْدِ
 فَأَصْبَحْتَ لَاقِحًا مُضْرَمَةً
 حِينَ تَقَضَّتْ غَوَابِرُ الْمُذْدِ
 إِنْ يَشْفَبُوا لَا يُبَالِ شَفَبَهُمْ
 أَوْ يَقْصِدُوا فِي الْحُكُومِ يَقْتَصِدِ
 حُلُوْ كَرِيمٍ وَفِي حِلَاوَتِهِ
 مُرٌّ لَطِيفُ الْأَحْشَاءِ وَالْكَبَدِ
 الْبَاعِثُ النُّوحَ فِي مَاتِمِهِ
 مِثْلُ الظَّبَاءِ الْأَبْكَارِ بِالْجَرْدِ

وقال أيضاً يرثي أخاه أريد:

لَنْ تُفْنِيَا خَيْرَاتَ أَرْ
 بَدَ فَابْكِيَا حَتَّى يَعُودَا
 قَوْلَا هُوَ الْبَطْلُ الْمَحَا
 مِي حِينَ يُكْسَوْنَ الْحَدِيدَا

وَيَصُدُّ عَنَا الظَّالِمِينَ
 إِذَا لَقِينَا الْقَوْمَ صَيْدًا
 فَاعْتَاقَهُ رَبُّ الْبَرِيَّةِ
 إِذْ رَأَى أَنْ لَا خُلُودًا^(١)
 فَتَوَى وَلَمْ يُوجَّعْ وَلَمْ
 يُوضَبْ وَكَانَ هُوَ الْفَقِيدَا

(١) اعتاقه: منعه من بلوغ أمله. ورب البرية: المكاره التي يصيب الدهر بها الناس. ويروى: رب البرية.

في الوصف والرحيل

- قال يصف رحلة الأحباب، ومناظر بقر الوحش والحر والسيول ويفتخر بقومه بني عامر.

طافت أسيماء بالرحال فقد
هُبِجَ مني خيالها طرباً
إحدى بني جعفر بأرضهم
لم تُمر مني نوباً ولا قُرباً
لم أخش عُلوية يمانية
وكم قطعنا من عرعر شعباً
جاوِزَ فلجاً فالحرزَ يُذِلُّجُ
ي بالليل ومن رمل عالِجٍ كُتِّبَا
هل يبلِّغُنِي ديارها حَرْجُ
وَجَنَاءُ تَفْري النجاء والخبَا
كأنها بالغمير مُمريةُ
تُبْعي بكتمان جؤذراً غطبا
قد آثرت فرقة البُغَاء وقد
كانت تُرَاعِي مُلَمَعاً شَبَبَا

أتيك أم سَمَحُ تَخِيرَهَا
 عِلْجُ تَسْرَى نَحَائِصاً شُبَا
 فَاخْتَارَ مِنْهَا مِثْلَ الْخَرِيدَةِ لَا
 تَأْمَنُ مِنْهُ الْجَذَارُ وَالْعَطْبَا
 فَلَا تَسْؤُلُ إِذَا يَسْؤُلُ وَلَا
 تَقْرُبُ مِنْهُ إِذَا هُوَ اقْتَرَبَا
 فَهُوَ كَذَلِكِ الْبَحْرِي أَسْلَمَهَا الـ
 حَقْدُ وَخَانَتْ آذَانُهَا الْكَرْبَا
 فَهُوَ كَقَدْحِ الْمَنِيحِ أَخُوذَةُ الْقَا
 نَصْرُ يَنْفِي عَنْ مَتْنِهِ الْعَقْبَا
 يَا هَلْ تَرَى الْبَرْقَ بَتُّ أَرْقُبُهُ
 يُزْجِي حَبِيئاً إِذَا خَبَا ثَقْبَا
 قَعْدَتُ وَحَدِي لَهُ وَقَالَ أَبُو
 لَيْلَى: مَتَى يَغْتَمِنُ فَقَدْ دَابَا
 كَأَن فِيهِ لِمَا ارْتَفَقَتْ لَهُ
 رَيْطَا وَمِرْبَاعٌ غَائِمٌ لَجْبَا
 فَجَادَ رَهْوً إِلَى مَدَاخِلِ فَالْصُّخْ
 رَةِ أَمَسَتْ زَعَاجُهُ عُضْبَا
 قَوْمِي بَنُو عَامِرٍ وَإِنْ نَطَقَ الْأَ
 عْدَاءُ فِيهِمْ مَنَاطِقاً كَذْبَا

بمثلهم يُجْبَهُ الْمُنَاطِعُ ذُو الْعِدِ
ز وَيُعْطِي الْمَحَافِظَ الْجَنْبَا

وقال يتحدث عن الأطلال:

لَمْ تُبَيِّنْ عَنْ أَهْلِهَا الْأَطْلَالُ
قَدْ أَتَى دُونَ عَهْدِهَا أَحْوَالُ
لِيَجْ فِيهَا مَا إِنْ يُبَيِّنْ لِّلْسَا
ئِلْ إِلَّا جَاذِرُ وَرِثَالُ
وَالْعَوَاطِي الْأَذْمُ السَّوَكَتُ بِالْأُتْلَا
بِ مِنْهَا الْأَحَادُ وَالْأَجَالُ
وَشَتِيمُ جَوْنُ يُطَارِدُ حَوْلًا
أَخْذَرِي مُسْحَجُ صَلْصَالُ
وَقَنَاءُ تَبْغِي بِحَرْبَةٍ عَهْدًا
مِنْ ضَبُوحٍ قَفَى عَلَيْهِ الْخَبَالُ
نَظَرْتُ عَهْدَهُ وَبَاتَتْ عَلَيْهِ
بَيْنَ فَلَجٍ وَاللُّؤْذِ غُبَسُ بِسَالُ
فَابْتَفَتُهُ بِالرَّمَلَتَيْنِ ثَلَاثًا
كُلُّ يَوْمٍ فِي صَدْرِهَا بَلْيَالُ
ثُمَّ لَاقَتْ بِصَبِيرَةٍ بَعْدَ يَأْسٍ
وَأَهَابًا فِي بَغْضِهِ أَوْصَالُ

نماذج من شعره

في التأمل والحكمة

قال يذكر طول عمره وسأله من الحياة ويتحدث عن مآثره
ومقاماته ويوازن بين ما كان وما صار إليه من ضعف.

قُضِيَ الْأُمُورُ وَأُنْجِزَ الْمَوْعُودُ
وَاللَّهُ رَبِّي مَا جَدُّ مُحَمَّدُ
وَلَهُ الْفَوَاضِلُ وَالنَّوَافِلُ وَالْعُلَا
وَلَهُ أَثْبَتُ الْخَيْرِ وَالْمَعْدُودُ
وَلَقَدْ بَلَّتْ إِرْمٌ وَعَادُ كِيدُهُ
وَلَقَدْ بَلَّتْهُ بَعْدَ ذَلِكَ ثَمُودُ
خَلَوْا ثِيَابَهُمْ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ
فَهُمْ بِأَفْنِيَةِ الْبُيُوتِ هُمُودُ
وَلَقَدْ سَيَّمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا
وَسُؤَالِ هَذَا النَّاسِ كَيْفَ لَبِيدُ
غَلَبَ الْعِزَاءُ وَكُنْتُ غَيْرَ مُغْلَبٍ
دَفَرُ طَوِيلٍ دَائِمٍ مَمْدُودُ

يَوْمٌ إِذَا يَأْتِي عَلِيٌّ وَلَيْلَةٌ
وَكِلَاهُمَا بَعْدَ الْمَضَاءِ يَمُودُ
وَأَرَاهُ يَأْتِي مِثْلَ يَوْمٍ لَقِيْتُهُ
لَمْ يَنْصُرْهُ وَضَعُفْتُ وَهُوَ شَدِيدُ
وَحْمِيَّتِ قَوْمِي إِذْ دَعَتْنِي عَامِرُ
وَتَقَدَّمْتُ يَوْمَ الْغَبِيطِ وَفُودُ
وَتَدَاكَاتِ أَرْكَانِ كُلِّ قَبِيلَةٍ
وَفَوَارِسُ الْمَلِكِ الْهُمَامِ تَذُودُ
أَكْرَمْتُ عِرْضِي أَنْ يُنَالَ بَنْجَوَةٌ
إِنْ الْبَسْرِيءُ مِنَ الْهَنَاتِ سَعِيدُ
مَا إِنْ أَهَابُ إِذَا السَّرَادِقُ غَمَّةُ
قَرْعُ الْقَيْسِيِّ وَأَرْعَشُ الرُّعْدِيدُ

- وقال يصف تغير الناس والأيام ويذكر أخاه أربد،
ويتحدث عن مآثره التي حققها:

قَضِ الْبَلَاءُ لَا أَبَالِكَ وَأَذْهَبِ
وَالْحَقُّ بِأُسْرَتِكَ الْكِرَامِ الْغُيُوبِ
ذَهَبَ الَّذِينَ يَعْاشِرُ فِي أَكْنَافِهِمْ
وَيَقِيَّتُ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرِبِ

يتأكلون مَفَالَةً وَخِيَانَةً
 وَيُعَابُ قَائِلُهُمْ وَإِنْ لَمْ يَسْتَفْبِ
 يَا أَرَبَدَ الْخَيْرِ الْكَرِيمِ جَدُودُهُ
 خَلَّيْتَنِي أَمْشِي بِقَرْنِ أَعْضَبِ
 لَوْلَا الْإِلَهُ وَسْعِي صَاحِبِ جَنِيمِ
 وَتَعَرَّضِي فِي كُلِّ جَوْنٍ مَضْعَبِ
 لَنِيَقُظْتَ عَلَّكَ الْحِجَازُ مَقِيمَةً
 فَجَنُوبٌ نَاصِفَةٍ لِقَاحِ الْحَوَابِ
 وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى خُمَيْتَرِ بَيْتِهِ
 مَتَنَكَّرًا فِي مَلَكِهِ كَالْأَغْلَبِ
 فَأَجَازَنِي مِنْهُ بِطَرَسٍ نَاطِقِ
 وَبِكُلِّ أَطْلَسٍ جَوْبُهُ فِي الْمَنَكِبِ
 إِنَّ الرِّزْيَةَ لَا رِزْيَةَ مِثْلُهَا
 فَيَقْدَانُ كُلَّ أَخٍ كَضْوَى الْكَوْكَبِ

لمحة موجزة عن أسلوب لبيد:

انطبع أسلوب لبيد بطابع البداوة والصحراء، وقد وقف العلماء حائرين أحياناً في تفسير بعض الألفاظ التي وردت في شعره، إذ أنها معقدة مغرقة في الغموض، ومن هنا جاء أسلوبه جافاً في بعض القصائد، ولكنه في أخرى كان جزلاً واضحاً، رصيناً معجباً، امتاز بجمال اللفظ ومتانته، ورقة الأوزان والقوافي، والأداء الموسيقي الجميل. وحكمنا على أسلوب لبيد لا يجب أن يصدر من منظر العصر الحديث، ولغة الشعر اليوم، وإنما يجب أن يحكم عليه من خلال العصر الذي عاش فيه.

وعندي أن لبيداً كان مجدداً في بعض معاني الشعر وأفكاره. وخاصة في معانيه الدينية والحكمية، وفي دعوته إلى تنقية الحياة من رواسب التمزق والألم، والانتقال بها إلى منابع صافية نقية.

وشعره الذي اتسم بالخشونة ذلك الذي صور فيه مناظر الصحراء، وتحدث عن حيواناتها، وافتخر فيه بأمجاد قبيلته، ولبيد المعروف بأسفاره المتواصلة عرف كل جهات الصحراء وخبرها ومن الطبيعي أن تكون ألفاظه ملاءمة لواقعه الحياتي والمعيشي، ولذلك فإن في شعره ذخيرة كبيرة من اللغة النجدية التي أصبح شعره شواهد لها في كتب اللغة.

وقد تناول لبيد في شعره كل ما دار حوله وما شاهده من إنسان وحيوان وشيء، كما أننا نلمح النزعة القصصية في قصائد الرحيل، فقلما تمر قصيدة يصف فيها الصحراء إلا وقص علينا قصصاً مثيرة فيها، تتناول الصراع على البقاء والوجود، والنضال في سبيل الحياة الكريمة.

وخيال الشاعر مادي، إذ انتزع صوره من صميم الواقع الذي عاش فيه، وليس معنى ذلك خلوشعر لبيد من المواقف الجمالية المبدعة، فللشاعر لقطات تصويرية موفقة، تكشف عن بصيرة ثاقبة وعقل نير.

وفي بعض قصائد لبيد أفكار خالدة إنسانية أخلاقية، تبني الإنسان وتوجهه وهي ثمرة تجارب غنية خبر فيها الشاعر الحياة ورأى تناقضاتها فاندفع بحس اجتماعي إلى الدعوة للخير والفضيلة والتعاون.

ويجد دارس لبيد كثرة التكرار في معانيه، خاصة في فني الرثاء والفخر، حتى أن بعض الأفكار ترد أكثر من مرة في القصيدة الواحدة، كما تتعدد الفنون الشعرية في بعض قصائده، خاصة في وصف الأطلال ومشاهد الرحيل، فهو يقف على الآثار الدارسة ويتغزل ويصف ثم يفتخر، شأنه في ذلك شأن معاصريه من الشعراء الجاهليين.

مصادر البحث ومراجعته

- أبو الفرج الأصفهاني - الأغاني - بيروت - دار الثقافة سنة ١٩٨٣ م - ج ١٥.
- ابن سلام الجمحي - طبقات الشعراء - بيروت - دار المعرفة.
- ابن قتيبة - الشعر والشعراء - بيروت - دار إحياء التراث.
- ديوان لبيد بن ربيعة - بيروت - دار صادر.
- د. مفيد قمبيحة - شرح المعلقات العشر - بيروت - دار الهلال.
- طه حسين - تاريخ الأدب العربي - بيروت - دار العلم للملايين سنة ١٩٨٢.
- علي الجندي - تاريخ الأدب الجاهلي - بيروت - مكتبة الجامعة العربية - سنة ١٩٦٦ م - ج ١.
- وهب رومية - الرحلة في القصيدة الجاهلية - نشر اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين سنة ١٩٧٥.

محتويات البحث

الموضوع	الصفحة
- مقدمة	٣
- العصر والبيئة	٥
- حياة الشاعر	٩
أ - سيرته الذاتية	٢٧
ب - سيرته الأدبية	٣٢
- فنون شعره	٣٩
أ - التأمل والحكمة	٤١
ب - الرثاء	٥٣
ج - الوصف	٦٩
د - الفخر	٩١
- المعلقة والتعليق عليها	١١٣
- نماذج من ديوان لبید	١٤٣
- قائمة المصادر والمراجع	١٥٩
- الفهرس	١٦٠